

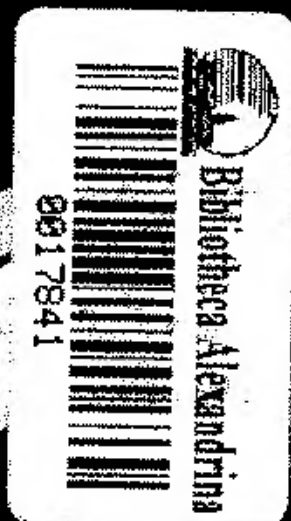


مجيد طويلا

عالم الملك وكتابخته



دار الكتب مصر للطباعة والنشر



عَلَيْكَ الْمُلُوكُ وَدَسَائِصُ الْبَنَاتِ

الكتاب : غرائب الملوك
ودسائس البنوك

المؤلف : مجيد طويبا

الناشر : دار إيجي مصر للطباعة والنشر

تليفون : ٥٤٦٨-٦١

الظلاف والرسوم الداخلية،
الفنان جودة خليفة

الإخراج : صامد المويضي

مجيد طويا

غرائب الملوك وكنائس النبوءات

حكايات حول قناة السويس تتناول: السلاطين المساطيل
وهجوم الأساطيل وبعض الأعاجيب لأصحاب الجلايب



■ المحتويات

صفحة

- ١- حكايات أولية عن بعض ذئاب الماضى ٧
- ٢- فصل من حكاية نقيب الأشراف.. والألبانى.. والباب المفتوح ١٢
- ٣- فصل من حكاية ابن القنصل.. والأمير وبداية القروض ١٩
- ٤- فصل من حكاية "خيفا" الذى دفع الرشوة ٢٥
- ٥- فصل من حكاية تجارة العبيد ومن حفلة الرقص التنكرية ٣١
- ٦- بعض المطالب العادلة.. لأوروبا الفاضلة ٣٧
- ٧- برقية السلطان التركى.. وعرائض معاشر الناس ٤١
- ٨- السيف المشهور.. وذئاب الميناء ٤٧
- ٩- لحاح من خيانات الأعيان.. وردم الفناء ومد الامتياز ٥٣
- ١٠- تنويعات على لحن البطل الجسور.. ورد الفلاح على الانجليزى مؤثر ٥٩
- ١١- فصل من ثورة أصحاب الجلايب الزرق.. ومن دسائس الرأس الكبير ٦٥
- ١٢- دقائق من يوم تخطيم السلاسل ومن لعبة الفطارات الخديعة ٧٢
- ١٣- فصل من مأساة الوعد.. وأكثر من أكتوبر ٨٥
- ١٤- لحاح من أكتوبر العبور ومن بعض مافعله أبناء الصمت فى ست ساعات ٩٣
- ١٥- الثراء والأمن فى الشرق العربى وملاحظات ختامية ١٠١
- ١٦- الطريق إلى التنوير ١٠٥
- ١٧- الطريق إلى الشمولية ١٢٥
- ١٨- والختام سلام ١٤٣

◆ الفصل الأول ◆

حكايات أولية عن بعض ذناب الماضي

يحكى أنه فى سالف العصر والأوان، وبالتحديد فى القرن التاسع عشر من الزمان، وبعد أن استضافت أوروبا من ظلمات الجهل اللعين وحررت عقلها من سطوة جبار الدين.. يحكى أن علماء الفرجة كانوا قد نشطوا يدرسون الانسان والأرض والسماء، لدرجة أن أحد هؤلاء اكتشف أن للبخار قوة، وأن هذه القوة يمكنها أن تدير آلة، وأن هذه الآلة يمكنها أن تنتج سلعاً وتحرك القطارات وتسير السفن.. فحدثت تلك الثورة الصناعية التى كانت طفرة للانسان لم تكن معروفة من قبل، وقوة عجيبة تضاف اليه..

ويحكى أيضاً أن تلك الجزر الجرداء المسماة إنجلترا كانت هى أسبق الدول فى هذا المضمار، بما ضاعف من إنتاجها السلع

بحيث فاق بكثير متطلبات سوقها المحلي، فصار لزاما عليها أن تبحث عن أسواق أجنبية تباع لها الفائض وتستجلب منها الخامات الأولية اللازمة لصناعاتها.

ومن أجل هذا الهدف خرجت بواج الاخليز الى كل بحر وكل محيط. لتلقى مراسيها على شواطئ الدول الآمنة والتائمة في نعاس التخلف.. يبدأ الأمر بالنجارة البريئة وينتهي بالاستعمار الصريح، فتسللت الى شبه القارة الهندية بشركة اسمها شركة الهند الشرقية ثم حولتها بسطوة السلاح الى درة المستعمرات في تاج الامبراطورية البريطانية، التي صارت لا تغرب عنها الشمس لانتشار أراضيها بين الغرب والشرق.. ويحكى أيضا أن الذئب الاجليزى نظر الى الشرق الأوسط، فرأى مصر واقعه على طريقه المؤدى الى درته الهندية، وأراها تزرع القطن اللازم لمصانع نسيجه، فطمع فيها وحدث نفسه قائلا:

— هذه ولاية عثمانية، تدفع الجزية للسلطان التركى المهيمن باسم الدين، مع أنه يقتل رجالها ويسبى نساءها وصبيانها، وهو فى الحقيقة لم يعد سوى عقل مشلول، لم يبرز له علم مثل علمى ولم تنطور له صناعة مثل صناعتى، فهو ذئب مريض واهن القوى متساقط الأنياب وقد قربت نهايته.. ثم كشر الذئب الاجليزى عن أنيابه وأكمل حديثه لنفسه:

— عندما يجيء الوقت المناسب سوف أنقض على هذه الدولة المصرية كما انقضضت من قبل على الدولة الهندية.. ومن حسن حظه أن تركيا كانت في حرب هلاكنة وطويلة مع روسيا القيصرية أنهكت قواهما معاً، وأن أمريكا كانت منشغلة بمشاكلها الداخلية، فلم يعد بالغاية الأرضية من بناؤه في الشرق الأوسط سوى فرنسا..

ويحكى أيضاً أن نابليون الفرنسي كان قد جاء قبل ذلك — وهو في الثامنة والعشرين من عمره — إلى مصر يريد غزوها.. وأن حكومة باريس كانت قد وجهت إليه ستة توجيهات سرية، كان ثالثها ينص على أن يقوم: "بشق برزخ السويس واتخاذ الوسائل الضرورية لضمان استيلاء الجمهورية الفرنسية استيلاء كاملاً على البحر الأحمر وامتلاكه"..

وكانت الختراً قد استولت على رأس الرجاء الصالح مؤمنة بذلك طريقاً جديداً سهلاً ومأموناً إلى الهند ذرة التاج البريطاني.. ومن هنا جاء التفكير الفرنسي بالاستيلاء على مصر لتتخذ منها قاعدة تهدد بها بريطانيا في الهند، فمهما كانت قوة البوارج الإنجليزية فإن دوراتها حول القارة الأفريقية يجعلها غير قادرة على كبح جماح البوارج الفرنسية الزاحفة إلى الهند عن طريق البحر الأحمر..

ويروى عن المهندسين الفرنسيين القادمين مع الحملة عام

١٧٩٨ أنهم لم يضربوا وقتهم، بل بدأوا في يناير من عام ١٧٩٩ - في دراسة تنفيذ التوجيه الثالث السري لحكومتهم، ومع نهاية نفس العام تقدموا بتقريرهم الى نابليون ذاكرين استحالة حفر البرزخ المطلوب، لاعتمادهم أن مستوى المياه في البحر الأحمر يرتفع عن مستواه في البحر الأبيض المتوسط بنحو ٣٣ قدما.. وكانت غلطة منهم سببها عدم دقة أجهزة قياسهم فتأجل حفر القناة..

وانتهى الأمر بالحملة كلها الى الفشل تحت ضغط مقاومة أهل مصر ومعارضة إنجلترا، فانسحب نابليون بونابرت من مصر، بعد أن تنبه الانجليز الى نواياه فسارعوا باحتلال جزر البحرين في الخليج العربي وعدن ومسقط والكويت وقطر وشواطئ عمان فيما سموه بالحميات البريطانية عند مدخل البحر الأحمر من أسفله.. ثم راحوا ينحبنون الفرص للانقضاض على أعلاه، أي على مصر التي قال عنها نابليون: "مصر لا توجد بلاد مثلها تنيسر لحكومتها وسائل المراقبة والسيطرة عن كذب بواسطة النيل" ..



◆ الفصل الثاني ◆

فصل من حكاية نقيب الاشراف... والالباني... والباب المنفتح

عندما غادر الفرنسيون مصر عادت فلول الممالك تدير البلاد
لحساب الباب العالي العثماني.. وكان هؤلاء في الأصل عبيدا
ويمتلكون بالمال ويستخدمون كحرس للسلاطين، وكانوا خليطا
من الاتراك والجراكسة والمغول والروم والقوقاز يشتريهم السادة
بقصد استمرارهم في حكم البلاد عن طريق حكومة أقلية
عسكرية.. وعلى هذا فقد كانوا أرقاء بحكم النشأة والمصدر،
متعطشين للدماء بحكم التربية والاحتراف.. فلما زاد عددهم
استولوا على الحكم، وراحوا يستأسدون على الناس المسلمين
بالنهب والرشوة والجلد والخوذة حتى تناقص تعداد السكان
بسببهم وبسبب الأوبئة والجاعات الى نحو المليونين والنصف
فقط، وكانوا يقدرون أيام الفراعنة بنحو سبعة ملايين تقريبا.

وعند أول محك حقيقى للمقومة انهار هؤلاء للممالك وتشتتوا
أمام الغزو العثماني على يد سليم التركي، ثم دحر نابليون

بفأياهم بحملته الفرنسية، فلما انسحبت عادت فلؤلهم تريد أن تبطل من جديد.. لكن الظروف كانت قد تغيرت، ومقاومة الناس للفرنسيين كانت قد أعادت الثقة إلى نفوسهم فناوذا المالكة..

ويحكى أنه كان بالقاهرة رجل البانى اسمه محمد على، من مواليد مرفأ "قوله" التابع الآن لليونان، كان يتزعم جيشا من مواطنيه الألبانيين تعدادة عشرة آلاف رجل، وكان أميا لكنه داهية ودموى من غير رعونة أو اندفاع وكان قد خدع المصريين بالتظاهر بحبهم وبالدفاع عن مصالحهم، لذلك توجه إليه الناس والشايخ بزعامة السيد عمر مكرم نقيب الاشراف، وطلبوا منه ان يكون واليا عليهم بشروطهم، وكان ذلك فى ١٣ مايو عام ١٨٠٥ عندما ارسلوا الى الوالى التركى قرارهم بعزله، فرفض قائلا:

— أنا معين من قبل سلطان الدولة العثمانية، فلا أعزل بأمر الفلاحين المصريين..

لكن عمر مكرم رد قائلا:

— ان الطاعة المفروضة لأولى الأمر معتها الطاعة للعلماء والسلطان العادل، وجرت العادة أن أهل البلد يعزلون الولاة الظلمة، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فانهم يخلعونهم ويعزلونهم..

وتم للناس فرض محمد على حاكماً لمصر. الأمر الذى رضى له العثمانيون على مفضل. وصار محمد على هو الخلف المنطقى لنبليون. وكان متأثراً به تأثراً شديداً. واستهل الألبانى حكمه بأن أجهز على المماليك جميعهم فى مذبحة القلعة الشهيرة. ثم استدار ينكل بقوى الشعب ويشترى رضا الكبراء بالهبات الكبيرة. حتى استتب له الأمر حاكماً مطلق اليد.

وعلى الفور أعلن احتكاره لكافة الأطنان، وراح يجهز جيشاً قوياً من الفلاحين أنشأ له المصانع اللازمة. وأرسل العديد من البعثات الى الخارج فلمع رفاعة الطهطاوى. وبعد أن تم للألبانى كل ذلك أعلن الحرب على الباب العالى. وحسرت الجيوش المصرية الشام بقيادة ابنه بالتبنى ابراهيم باشا — صاحب تمثال ميدان الأوبرا القديمة — ثم راحت تدق أبواب العاصمة العثمانية نفسها. وعند ذلك تدخل الذئب الانجليزى مع حلفائه وحاربوا جيش مصر وكسروه، فانكمش محمد على فى ولايته على مصر راضخاً لسيادة السلطان التركى الاسمية ولدفع الجزية السنوية له. وقد سر من ذلك الذئب الانجليزى وحدث نفسه قائلاً:

— هأنذا أفهمت السلطان التركى أنه مدين ببفائه لى. وأفهمت ذلك الألبانى الأمى الطموح أننى لا أريد فى مصر دولة قوية مستقلة.

ومن هنا كان محمد على يرفض فكرة القناة حتى لا يعطى الأوربيين مطمعاً حديداً — وكانت القياسات الجديدة قد أثبتت خطأ علماء الحملة النابليونية — وعندما حاولت مجموعة المهندسين الفرنسيين المشتركين في بناء القناطر الخيرية اقناعه بحفر القناة رد قائلاً:

— إنى لو فتحت القناة خلقت لمصر يوسفورا كبسفور الدولة العليا (يقصد تركيا).. وكما أن اليوسفور سبب في مشاكلها فإن بلادى المظموغ فيها أصلاً سوف تصبح بسبب القناة مرسحاً للمطامع السيئة..

وعلى غرار سار خلفاؤه ابراهيم وعباس الذى كان يكره الأجانب. وإلى أن جاء ثالث الأمراء الباشوات واسمه سعيد وكان يحب الأجانب.. وكان احتكار الدولة للتجارة والصناعة والزراعة قد سارع إلى الانهيار.. وكان الذئب الإنجليزي قد فرض ماسماه بسياسة الباب المفتوح، ومعناه ان تشتري دولة مغلوبة على أمرها مثل مصر بضائعه بأعلى الأسعار، وأن يبيعه قطنها الخام بأرخص الأسعار، استمرازا لاستراتيجية التجارة فى البدء ثم الاستعمار كنتيجة.. ولم يقاوم سعيد باشا، وفتح الباب على مصراعيه.



◆ الفصل الثالث ◆

فصل من حكاية ابن القنصل .. والامير وبداية القروض

وكان الأمير سعيد فى صباحه سمين البدن. وكان أبوه يكره السمنة فمنعه من أكل النشويات. لكنه كان مغرمًا بالمكرونه. فكان يهرع الى القنصلية الفرنسية حيث يلتهم الأطباق الشهية منها مع جُل القنصل الذى يدعى "فرديناند ديلسبس". ثم فرق الزمن بينهما بعودة الفرنسي الى دياره.

وعندما تولى الأمير الحكم، التأم شمل الصديقين مرة أخرى.. وفى رحلة صيد فى الصحراء الغربية عرض مشروع حفرة قناة السويس على سعيد باشا، الذى لم يشأ أن يكسر بخاطر صاحبه فوافق. وأصدر المرسوم اللازم لهذا بديباجة هى أقرب الى العشق منها الى الود قال فيها: "الى صديقى المخلص الكريم المنبت، العالى المقام، المسيو فرديناند ديلسبس.. وقد خولناه بموجب هذه الوثيقة السلطة التامة لتأليف شركة عامة لحفر برزخ السويس واستغلال القناة التى ستصل بين البحرين الأبيض والأحمر."

وبموجب هذا المرسوم قدّم سعيد إلى هذه الشركة جميع الأراضي التي تمر بها القناة والتي على جانبها مجاناً، مع اعفائها من كافة الرسوم الجمركية والعوائد، ومنحها حق استخراج مايلزمها من مواد البناء من الحاجر الأميرية مجاناً، وانفرادها بدخل القناة لمدة ٩٩ سنة. كما منحها حق حفر ترعة مياه حلوة من فرع النيل إلى منطقة القناة للارتواء منها دون مقابل. بل وأضاف أنه إذا أراد أصحاب الأطيان المجاورة لهذه التربة رى أراضيهم منها فعليهم أن يدفعوا ثمن هذه المياه للشركة الأجنبية..

كل هذه الامتيازات أعطاها سعيد لصديقه دون مقابل، وربما من أجل خاطر صداقة المكرونة اللذيذة. ولم يكتف بهذا، بل عاد يلحق المرسوم السابق بمرسوم آخر تتعهد فيه مصر "بتقديم العمال اللازمين لحفر القناة طبقاً لحاجة العمل". وكان معنى هذا تسخير عشرين ألف فلاح في الحفر مقابل مبالغ هزيلة لم تدفع لهم على الإطلاق، وهذا يعنى بالتالى حرمان الأراضي الزراعية من جهد ستين ألف عامل، إذ كان عشرون ألفاً يعملون على الدوام في حفر القناة بينما عشرون ألفاً غيرهم يجهزون للحلول محلهم. وعشرون ألفاً ثالثة انتهت مدتهم وهم على أهبة العودة وقد انهكتهم سخرة

السلاسل والكرابيج. وحكى أنهم كانوا يظلون عدة أسابيع في قراهم وهم غير قادرين على العمل. وأن المئات منهم تسافطوا قتلًى تحت ضرب السياط وضربة الشمس والأوبئة، فكانوا يدفنونهم من قبل أن يلفطوا أنفاسهم الأخيرة..

ولم يكن هذا هو كل ماقدمته مصر، فعندما طرح ديلسبس أسهم الشركة للبيع تبقى منها مايقرب من خمسيها، وأصبح المشروع كله مهددا بالالغاء، وعند ذلك سارع الأمير الى انقاذ شركة ابن الفنصل فقام بشراء هذه الأسهم على حساب الخزانه المصرية، ولم يكن فيها هذا المبلغ فاستدانه على أن يسدده على أقساط ذات فوائد مركبة عالية، عجز عن سدادها.. فتكالب عليه المليون الأجانب يتفننون فى سلب المال المصرى بأساليب غاية فى العجب، الى درجة أنه ذات يوم دخل أحدهم على سعيد باشا وكانت نافذة القاعة مفتوحة، فصاح الوالى فى خادمه:

— أغلق هذا الشباك بسرعة فلو أصيب هذا السيد بزكام فليسوف بطالبنى بتعويض لا يقل عن عشرة آلاف فرنك!!

ومات سعيد الذى أحب الأجانب وقد ترك البلاد مدانه لهم بمبلغ كبير يزيد عن اجمالى إيرادات الميزانية العامة!!.. غير أن

فى عهدہ سمح بترقية الضباط المصريين، كى يحد من عريضة الضباط الأتراك والشراكسة.. وبهذا تمكن مصرى صغير اسمه أحمد عرابى من الوصول الى رتبة قائم مقام وكان قد دخل الجيش برتبة نقر عادى..

وجاء من بعده اسماعيل باشا الذى كان أكثر منه سخاء..



◆ الفصل الرابع ◆

فصل من حكاية "خيفاً" الذي دفع الرشوة

أول ما فكر فيه اسماعيل هو أن يشتري لنفسه من الباب العالي لقباً فخماً يميزه عن باقي الولاة الآخرين.. وفي البداية أراد أن يلقب نفسه بالعزیز لكن عقبة بسيطة حالت دون ذلك، إذ كان السلطان التركي نفسه يسمى عبدالعزیز فكيف يلقب أحد ولاته بالعزیز؟! وأخيراً عثر على أمنيته في كلمة خديوى، وهى صفة مشتقة من كلمة "خيفاً" وهى اسم فارسى من اسماء الله، تعنى الربانى أو الالهى.. ولما كان الأتراك والمصريون لا يعرفون الفارسية فقد كان للقب الجديد وقع السحر لما فيه من غموض.. ولم يفز إسماعيل به بالجنان، بل برشاوى ضخمة وزعت على السلطان وحاشيته، منها يختا بخاريا عالى الثمن و"طاقما" للمائدة مرسعا بالماس ومبلغا كبيرا من المال.. بالإضافة الى زيادة الجزية السنوية المفروضة على مصر مقابل أن تصبح هذه الخديوية وراثية لأولاده من بعده!

ولعل تشبثه بهذا اللقب الوهمى يلقى بعض الأضواء على شخصيته. وكان غريب الثقافة مبهورا بالحضارة الأوروبية، ومبذرا انهمك فى رحلات باذخة الى بلدان الغرب، وفى حشد بيوته بالنساء والعبيد والجواهر والتحف والأثاث المستورد من فرنسا وغيرها، كما اندفع فى عزوات لا طائل من ورائها وفى مشاريع كثيرة دون أن يكون لديه المال الكافى لها فنفذ معظمها بالاستدانة، مما ضاعف من قيمة القروض ومن فوائدها، فتسبب بعد زمن قليل من توليه الحكم فى ألفى بالدين القومى المصرى من ثلاثة ملايين جنيه الى مايقرب من المائة مليون وهو مبلغ ضخم جدا فى ذلك العصر.

ومع قرب افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ اتسمت استعداداته بالاسراف الشديد، فقد جعل المهرجانات والاحتفالات تستمر أربعة أيام فى العاصمة وعلى الفناء ذاتها، كأنها ليالى من ألف ليلة وليلة. وفى القاهرة أنشأ أول دار للأوبرا فى الشرق وأفريقيا، وعهد الى الموسيقى الايطالى الشهير "فيردى" بوضع "أوبرا عابدة" لحفلة الافتتاح (وان كانت الأوبرا لم تعرض بمصر الا فيما بعد لظروف متعلقة بفيردى). كما أمر بتسليط أنوار الماغنسيوم البراقة على الأهرامات. وأقام فى بورسعيد ثلاثة سرادقات، واحدا لأرقى الضيوف

والثاني لعماء المسلمين والثالث للمسيحيين.. وأعد ذخيرة من الصواريخ النارية لتحية الافتتاح، واستدعى من فرنسا وإيطاليا ٥٠٠ طبّاخ و١٠٠٠ خادم لتقديم الأطعمة لستة آلاف مدعو وفرت لهم أجود أنواع الخمر وأغلى الأطعمة دون حساب.. وكان من بينهم معظم أباطرة وملوك وأمراء أوروبا ونبلائها وسفرائها، إلى جانب قائمة طويلة من مراسلى صحف خاملة الذكر كان بشئيرهم من أجل مدحه باللغات الأجنبية.. وفى نفس الوقت جاهل دعوة السلطان التركي إذ كان ينوى اعلان انفصاله عنه لكن الظروف الدولية لم تساعد.

وفى الصباح المحدد للافتتاح بارك القناة رجال الدين الاسلامى والأرثوذكس اليونان والأقباط الكاثوليك.. وأطلقت الأعيرة النارية والصواريخ.. وعزفت عشرون فرقة موسيقية عسكرية.. وحلال دخان البارود افتتحت الامبراطورة الفرنسية "أوجينى" من فوق سطح اليخت الامبراطورى "بجل - أى النسر - القناة". وتبعها اسماعيل على بخته "الحروسنة" وسيفه الملكى يتألق بالجواهر، ثم امبراطور النمسا وعائلته، فخمسة مدرعات انجليزية وسفينة حربية روسية وحوالى ٧٠ سفينة بخارية وشمراعية..

عادت الامبراطورة أوجينى إلى فرنسا، وقد أهداها اسماعيل

سريرا أعمدته من الفضة الصب.

ومن ميزانية الدولة وبمزيد من القروض استصلح أكثر من مليون فدان أضافها الى ممتلكاته الخاصة بحيث صار يملك خمس مساحة الأرض المنزرعة كلها، وكى يستصلح هذه الأرض سخر الفلاحين بالسياط فى حفر الترع وفى مد الخطوط الحديدية التى زادت من ٢٤٦ الى ٩٦٠ ميلا كى يتيسر نقل محاصيله الى موانئ التصدير، وفى مد شبكات التلغراف الحديثة كى يتحكم فى إدارة هذه المساحات الشاسعة.. ثم أدخل زراعة القصب فى أراضيه وأنشأ من أجلها مصانع السكر.

غير أنه بالاضافة الى ما سبق شيد أحواض السفن والمنارات على شاطئى البحرين الأبيض والأحمر، وسير خطوط الملاحة، وقام بتوسيع شوارع القاهرة وتزيينها وإقامة المتنزهات بها، ووضع نظاما ثابتا للإدارة ونقل المياه، وفقر بعدد المدارس الحديثة من ١٨٥ الى ٤٨٧ مدرسة..

وف نظر الذئب الاجلىزى بعين العطف الى جميع الانشاءات المتعلقة بالرى والزراعة وحدث نفسه قائلا:

— لطيف من هذا الخديوى أن يهين مصر لى كمزرعة خصوب ميسرة المواصلات، وسوف أعمل على توريثه فى المزيد من

الديون حتى أغوز بكل هذا.

لذلك لم يكن يستغرب أن المرابين الأنجليز والفرنسيين كانوا يتزلفون إلى اسماعيل ويتوسلون إليه كي يفترض منهم المال بأعلى الفوائد المركبة، وأنزلق هو إلى الحد الذي عجز فيه عن سدادهاء. وعند ذاك انقلبوا إلى وحوش تطالب بريها في وقاحة أرغمنه إلى أن يبيع لآجلترا نصيب مصر من أسهم القناة والبالغ نسبتها خمسى مجموع الأسهم، وبسعر ينقص عن سعرها القديم وكانت وقت البيع تزيد عنه بكثير، فى صفقة جائزة سماها رئيس الوزراء الأنجليزى بصفقة العصراء..

ومنذ ذلك الوقت اعتبر الأنجليز أن قناة السويس ملكا لهم، وإن من حقهم احتلال الأرض التى تمر بها وراحوا يجهزون لذلك!!.. ولم يتبق لمصر من "مولد" القناة سوى نسبة ١٥ فى المائة من صافى الدخل بعد الافتتاح. فهل يحافظ صاحب السمو الخديوى اسماعيل باشا عليها؟..

◆ الفصل الخامس ◆

فصل من حكاية تجارة العسبيد ومن جعل الرقص الشكري

فى ذلك العهد كانت تجارة الرقيق تجارة رائجة، وكانت لها أسواق ثابتة ومواعيد محددة، وعُرف متفق عليه وثقاليد مصانته.. وكانوا يبيعون النساء والصبية، المرأة البيضاء والصبي الأبيض أعلى سعرا من الجارية السوداء. والبضاعة مضمونة لمدة ثمانية أيام، ومن حق العميل أن يعيد من اشتراها فى خلال مدة الضمان إن اكتشف عيبا ما فيها.. وكان النحاسون — أى تجار العبيد — يجلبون هؤلاء من شرق أوروبا وبعض مناطق آسيا ومن جنوب السودان والمناطق المتاخمة.. وكانت معظم المناطق الأخيرة نعد مجهولة بالنسبة لخرائط العالم المتمددين، كانت أفريقيا هى القارة السوداء وأرض الغموض والسحر والنوحش والأوبئة..

ولما كان تدوين هذه الخرائط يسهل على هذا "العالم للمتمدين" احتلال أرض السحر والغموض هذه الغنية بالخامات البكر، لذلك فقد شجعت الحكومة الإنجليزية رجالها المغامرين على التوغل فى أحراش جنوب السودان لاكتشاف منابع النيل.. وكان من بين هؤلاء رجلا اسمه "صمويل بيكر" اكتشف بحيرة سماها بحيرة "ألبرت" جعلت صيته يبلغ أسماع الدنيا..

وكان ناجر الرقيق يجمع من حوله — على حد قول بيكر — أكثر من مائة رجل من الأعراب والأوباش الفارين من العدالة، ويزودهم بالبنادق، ثم يشتري بعض الخرز والزجاج ويتوغل بهم بالمراكب قاصدا إلى أحد رؤساء القبائل الزوج الذى يكون قد عقد معه رابطة صداقة، وبعد أن يهدبه الخرز والزجاج، وبعد أن يعرف الرجل مدى قوة بنادقهم على الفئك، يدلهم على الطريق إلى قبيلة أخرى مجاورة يكون على عداوة معها.. وقبيل الفجر ينصف ساعة يتسلل هؤلاء حيث يشعلون النار فى أكواخ القبيلة النائمة مطلقين وابلا من الرصاص، وينهض البؤساء النيام مذعورين ويفتل منهم من يقتل، ويتم أسر النساء والصبية الأصحاء حيث يقيدون أرجلهم بالسلاسل الحديدية.. وكثيرا ما يحدث بعد ذلك أن ينقلب جدار العبيد على

القبيلة المتحالفة معهم ويغدرون بها ويفعلون في أفرادها
نفس الشيء..

وقد حضر هذا الرحالة حفلات افتتاح قناة السويس كمترجم
نظرا لعرفته بمصر وباللغة العربية.. وفي حفل رقص تنكرى
أقامه ديلاسبس تقدم الخديوى من الرحالة المتنكر خلف قناع
أفريقى، وعرفه بنفسه ثم انتحى به جانبا حيث عرض عليه
قيادة حملة عسكرية لضم أعالي النيل لمصر تحت زعم محاربة
الرق والقضاء على تجارة العبيد (وهو زعم شبيه بزعم الإنجليز
فيما بعد من أنهم كى يضموا تسديد مصر لديونها فعليهم
أن يحتلونها!!).. وقد قبل بكرة هذا العرض مقابل راتب سنوى
ضخم قيمته ١٠,٠٠٠ جنيه استرلينى بسعر ذلك العهد، وجاء
لتنفيذ الحملة ومعه زوجته الفاتنة وعدد من المساعدين، وأخذ
معه الجنود المصريين — وقد فوض بالسلطة المطلقة —
وبواسطتهم تم له ما أراد..

والغريب أن رأى بيكر — محرر العبيد الزعوم هذا — فى
الأفريقى هو: "أنه قد يكون فى طفولته متفوقا على قرينه
الأبيض فى سرعة النمو الذهنى، ولكن العقل لا يمضى فى
نموه، فهو يبشر بالازدهار ولكنه لا ينضج.. ومهما كان استنكارنا
لنظام الاسترقاق، فإنه قد ثبت أن الرجى لا يقدر نعمة الحرية.

ولا يبدى أتفه مشاعر العرفان لليد التى حطمت أغلاله!!
والغريب أيضا أن اسماعيل نفسه كان من كبار مقننى
العبيد. وكان الفلاحون المستخدمون فى ضياعه الشاسعة
وجحافل الخدم فى قصوره أحرارا فى الظاهر عبيدا فى الواقع..
بل انه كان قد منح بعض النخاسين عقودا رسميه تخولهم
حق اصطلياد العبيد من أعالي النيل!!

وبالطبع فان سير صموئيل بيكر لم يوافق على القيام بمهمة
فتح أعالي النيل هذه إلا بعد أن أخذ موافقة حكومه صاحبه
الجلالة البريطانية.. وفى هذه المرة أيضا نظر الذئب الانجليزى الى
هذه الغزوة بعين العطف. وحدث نفسه قائلا:
— لطيف جدا هذا الخديوى. فعندما احتل أنا مصر أكون قد
احتلت السودان دون أن أنفق بنسبا واحدا..

وتبعت هذه الحملة حملات أخرى بقيادة انجليز برواتب ضخمة،
أبيد فيها الآلاف من الجنود المصريين — شاهد أحمد عرابى
شوطا منها — وأنفقت عليها النفقات الباهظة بما كانت سببا
فى زيادة الديون الأوروبية ذات الفوائد الربوية. بحيث اضطر
اسماعيل الى بيع حق مصر فى نسبة الـ ١٥ فى المائة من
دخل القناة وبأبخس الأسعار. وكان يظن أن فتح أعالي النيل
سوف يضيف اليه دخلاً كبيراً!!.. وبذلك تكون مصر قد خرجت

من مولد القناة بلا حمص، بل ومديونة خاصة بعد عملية
الاحتفال الفظيعة التي ارتكبتها ديلسيس في حق مصر،
وسميت وقتها بأكبر عملية احتيال ترتكب في القرن التاسع
عشر والذي يسمى بقرن الاستعمار..

فماذا دبر هذا السيد الفرنسي؟!

◆ الفصل السادس ◆

بعض المطالب العادلة لأوروبا الفاضلة ..

أراد اسماعيل في بداية عهده أن يلغى من عقد شركة القناة البند الذي يلزم مصر بتوريد العمال المصريين لحفر القناة بالسخرة. وقد ظلت الشركة تماطل لمدة خمس سنوات ثم أعلنت فجأة رضوخها الظاهري..

وخت ضغط الإنجليز طالب الخديوى بإلغاء البند الخاص بالترعة الحلوة التي كانت الشركة تحفرها، مع إلغاء حقها في الأرض الصحراوية الواقعة على ضفتيها، وكانت إنجلترا تخشى استفحال النفوذ الفرنسي في مصر وقد تظاهرت الشركة بالموافقة على هذا أيضا. وفي الحقيقة لم يكن ديلسيس يوافق بقدر ما كان ينصب ويعسد شركاء فظيعة للأمة الضعيفة. إذ فوجئت مصر بشركته تطالب بالتعويضات عما سبق، فقد قالت إن إلغاء السخرة سيرغمها على استئجار العمال الأجانب وعلى شراء كراكات وهذا سوف يكلفها ٣٨

مليون فرنك فرنسى على مصر أن تنحملها!!.. وقالت إنها أنفقت على الترعة الخلوۃ مبلغ ١٠ ملايين من الفرنكات على الحكومة المصرية أن تعوضها عنها!!.. وطلبت ثمنًا لضفتى الترعة — وهى أرض صحراوية منحت لها بالجمان — طلبت ثمنًا لها ٣٠ مليون فرنكًا أخرى!!.. ولم تكف بهذا بل قالت: إنها لو أتمت الترعة الخلوۃ فأنها كانت ستنبيع المياه للمزارعين على الضفتين، وكانت ستأخذ رسوما من المراكب التى سوف تستخدمها، وقد ردت كل ذلك بمبلغ متواضع مقداره ١ ملايين فرنك، بالإضافة الى ان هذه الترعة كان سينمو بها السمك وصيده موردا خصبًا خسرتة!!..

ولهذا طالبت الشركة بمجموع هذه "التعويضات العادلة" وكانت ٨٤ مليون فرنك.. وانتزع اسماعيل ورفض، ثم قبل التحكيم لدى امبراطور فرنسا و نابليون الثالث زوج أوجينى، وكان "فاصلا جدا" بحيث أقر جميع هذه المطالب "العادلة جدا".. وكان ديلسيس يمت اليه بصلۃ نسب!!

كانت أكبر فضيحة أخلاقية لأحط عملية احتيال يشترك فيها ديلسيس وأصحاب البنوك الأوروبيين مدعمين بامبراطورهم الذى يأتى ترتيبه فى سلسلة النابليون رقم ٣.. ولم يكن أمام مصر المنكوبة سوى الرضوخ.. بل وأكملت على نفقتها الخاصة اتمام حفر الترعة الخلوۃ وصارت مرافق شركة

ديلسبس ترتوى منها بالجآن!!

وأشهر أصحاب الديون إفلاس الخديوى اسماعيل باشا ولقبوه بالليونير المفلس، فقد عجزت مصر بجميع دخلها عن سداد مجرد فوائد الديون، وفى هذه الديون كان الجنيه فى أول العام حق عليه فوائد ١٠ قرشا عند آخر العام!!.. ورهنت الخاصيل وهى مزارات مزروعة ورهنت مديريات بأكملها كالموقفية والشرقية والجيزة، وكذلك إيرادات السكة الحديد والجمارك والضرائب بكافة أنواعها وعوائد الملاحات.. واستنقح التندخل فى الشؤون الداخلية بأن صار فى الوزارة المصرية وزير فرنسى للاشغال ووزير اقليمى للمالية..

ونظر الذئب الاقليمى الى كل هذا وقال لنفسه:
— نضجت الطبخة، بدأت بالتجارة ويستصدير المال ولم يعد متبقيا لى سوى الاحتلال والسيطرة التامة.

وانتهالت التعيينات لأفاقى أوروبا فى الوظائف الكبيرة دون عمل يؤدونه، حتى زاد عددهم عن سبع عدد جميع الموظفين ولهم الرواتب العالية، فى نفس الوقت الذى استعنى فيه عن مئات الموظفين بحجة ضغط المصاريف، وحدث فى شهر فبراير ١٨٧٩ لوحده أن أحيل الى الاستيداع مرة واحدة ٢٥٠٠ ضابطا!!

◆ الفصل السابع ◆

برقية السلطان التركي .. وعرائض معاشر الناس ..

كأسلافه كان الخديوى حاكما مطلقا، ولم يكن هناك من يحاسبه - وأخطاء أمثاله تدفع ثمنها أجيال عديدة تالية لا ذنب لها - وكانت الحياة النيابية فى عهده شكلية تتمثل فى "مجلس شورى النواب" المكون من بعض كبار الأعيان ورأيه لا يتعدى الاستشارة.. وعندما أشهر اسماعيل افلاسه عام ١٨٧٦ لم يكن المجلس قد انعقد مرة واحدة خلال العامين السابقين!!.. وكان التدهور قد بلغ أقصى مداه، والتدخل الأجنبى قد صار استعمارا مقنعا بحيث أصبحت مهمة الخديوى هى توقيع المراسيم التى بعدها الوزيران الأجنيبان، فثار الوطنيون وعقدوا اجتماعا على شكل جمعية وطنية فى منزل أحدهم، ثم رفعوا الى الخديوى قراراتين، الأولى مشروعا لنسوية القروض المالية والثانى نخويلا لمجلس شورى النواب بمناقشة ميزانية البلاد وبجعل الوزارة مسئولة امامه..

وهنا أراد اسماعيل أن يضغط بهم على الأجانب، فجازف بقبول هذين الطالبين وشكل وزارة جديدة طرد منها الوزيران

الانجليزى والفرنسى.. وبدأ المجلس يناقش مواد الدستور الجديد عام ١٨٧٩. والذى أعده محمد تيسري باشا أبو الدستور. وكانت البلاد تمر بمجاعة فظيعة مات فيها الألوف من الفقراء... وهنا تحرك الانجليز. فلو أن المجلس أتم دستوره وصار من حقه تنظيم الميزانية وتمكن من تسديد الديون. إذن لانهارت خطة الذئب. لذا صار من اللازم اسفاف هذا المجلس وعزل الخديوى نفسه ان عارض هذا الايقاف.

وطلبت المانيا من السلطان عزل الخديوى. فتردد الذئب المريض الذى كادت جيوش مصر فى عهد محمد على ان تنفض على عاصمته.. فلما مارست إنجلترا عليه بعض الضغوط الخفيفة اسنأسد وأرسل برقية مَعْنُونَة الى "سراى القاهرة" صاحب السمو اسماعيل باشا... خديوى مصر الأسبق.. "ما أن تلاها اسماعيل حتى صاح: — أهذا هو جزاء ٢٠ مليون جنيه استرلينى أرسلتها رشاوى لهؤلاء العثمانيين؟!..

وقال القنصل الأمريكى وكان صديقا له: "إن اسماعيل أخطأ عندما وضع نفسه تحت رحمة مولى لندن وباريس. هؤلاء الذين كان معظمهم من اليهود. وكان لديهم من سطوة المال القوة الكافية لتوجيه حكومتى إنجلترا وفرنسا لخدمة أغراضهم". وعين خلفا لاسماعيل ولده توفيق. وكان خلع الأب درسا للابن

مفاده الرضوخ للإنجليز. فصار المندوب السامي البريطاني بمثابة "مستشاراً" للخديوى الجديد، وكان يصدر التعليمات إلى "سموه" فيما يختص بواجباته، وبذلك أصبح هو الحاكم المطلق لمصر. وبالمثل كان لكبار الموظفين المصريين "مستشارين" من الإنجليز يصدرون إليهم الأوامر الخاصة بما يجب عليهم عمله. وهكذا كان الموظفون الأساسيون في الدولة مصريين اسمها كان أصحاب الأمر والنهي والفصل في الحقيقة من الإنجليز. وهكذا حكم الأجانب عن طريق المراسيم التي يوقعها الخديوى الجديد، فتم حل البرلمان تمهيدا لضرب الحركة الوطنية كلها، والتي كان أحمد عرابي قد تألق فيها زعيما محبوبا شعاره مصر للمصريين. ولم يكن تألقه وظهور حركته يعجب الإنجليز. كما صدر مرسوم بإبعاد رجل ملتحي ناري العينين عن مصر هو جمال الدين الأفغاني..

وكان الأفغاني قد ألهم حماسه مريديه بأفكاره الثورية. وكان قد النف من حوله مثقفو مصر — ومعظمهم من نتاج البعثات التعليمية التي كان محمد علي قد أرسلها إلى أوروبا — وكان منهم الأدباء والأزهريون وضباط الجيش، مثل محمد عبده وعبد السلام المويلحي، وعبدالله نديم الذي صار خطيب الثورة العرابية. وأيضا سعد زغلول الذي تزعم بعد ربع قرن ثورة ١٩١٩ التي أكدت شعار "مصر للمصريين" وطبعاً مصر

بشروعاتها وقناتها..

فى البداية كان الأفغانى قد فقد الأمل فى اصلاح حال اسماعيل ورآه أصل البلاء، فراح يستعجل عزله لتولية ولده توفيق على أمل أن يكون الابن أفضل من الأب، فكان أول ما فعله الابن هو طرد الأفغانى، فرحل وحل محله تلميذه الشيخ محمد عبده، لكن التلميذ لم يكن مندفعاً مثل الأستاذ، فلم يكن يؤمن بالخلول الجذرية، وكان يعتقد أن البلاد لن تنضج للحكم الدستورى إلا بنشر الوعى والتعليم أولاً.. لهذا كان من الطبيعى أن ينشق عليه عبدالله نديم، الشاعر النورى النابع من الشعب ليكون جماعته الخاصة التى شكلها على حد قوله من فقراء المصريين، وصار هو خطيب الثورة الملتهب، وطاق بالمدن والقرى يلشح للناس القضية ويجمع توقيعاتهم على عريضة تفوض عرابى فى التحدث باسمهم جاء فيها: "واعلموا يا معاشر الوطنيين بأن أولادكم فى سلك الجهادية قد اتكوا على البارى وعزموا على منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقكم.. والمطلوب منكم هو التوقيع على هذه النشرة والمقصود بها أن أكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد - التوقيع أحمد عرابى"



◆ الفصل الثامن ◆

السيف المشهور .. وذئب الميئاء ..

كان عرابى من أصل ريفى له مثبته تشبه مثبته منشاخ
البلد. عريض المنكبين ينصف بنفس صفات الفلاحين، وكان
قد ظهر اسمه بين صفوف العساكر والضباط ثم سرعان ما
صار زعيما شعبيا عرشه هو حب الناس.. وكان خطيبا بارعا
وكان — دون شك — صادق الاخلاص.. وكانت حركته ثورية
شعبية واضحة الملامح والأهداف: "فحركة الفلاحين تناضل
من أجل التخلص من تسلط الخديوى والأمراء والباشوات
الأغنياء؛ هكذا سمي حركته حركة الفلاحين..

وراح خطيبه عبدالله نديم بهاجم حياة البذخ للأعيان
والحكام الرافلين فى ثياب العزبين الغانيات والمبذرين للأموال
الطائلة هى فى الحقيقة أموال الفلاحين البؤساء.. كما دافع
بقوة عن قدرة بسطاء الناس على ممارسة الحياة الديمقراطية
بشرط أن يمثلوا فى مجلس النواب على قدم المساواة مع
الأمراء والأعيان ودون تفرقة طبقية ولا يكون تمثيلهم رمزيا ذرا

للرماد.. كما جاهر بأمنيته فى أن يرى "عرش السلطان ينهار فوق رأسه".. وكان فى ذلك متفقاً مع ما أعلنه عرابى نفسه من رغبته فى التخلص من حكم أسرة محمد على، ومع ما أعلنه سامى البارودى رفيق عرابى من أن الهدف هو "جمهورية مصرية حيادية مثل جمهورية سويسرا"..

ومعنى كل هذا أن تصبح "مصر للمصريين" يعد أن أصبحت مصر لقناة السويس.. وقد رفض الخديوى توفيق — مدعماً برضا الإغليز — مطالب الشعب التى رفعت إليه عن طريق عرابى ورفض الاعتراف بزعامته، بل وأمر بإبعاده مع رفاقه الضباط الشبان هم وكتائبهم الى خارج القاهرة، فإذا بهم يقودون جنودهم الى قصر عابدين — وكان ذلك فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ — حيث واجه عرابى الخديوى من فوق صهوة جواده شاهراً سيفه، ومن حوله جنوده وجموع الناس أو معاشير المواطنين على حد قوله.. فسلم توفيق لصوره تسليماً كاملاً. ووافق على تأليف وزارة وطنية عين فيها أحمد عرابى وزيراً للحربية..

لكن سرعان ما احتج البريطانيون والفرنسيون على تعيينه!!.. فكان هذا كفيلاً بأن يزيده شعبية عن ذي قبل، وسرعان ما انتشر بين الناس نبأ عن اكتشاف مؤامرة لاغتياله، وكان وراؤها حوالى أربعين ضابطاً تركيا وشركسيا.. وعندما حوكموا وقضى بنفيهم الى السودان رفض توفيق اعتماد الحكم.. فقد

كانت لتوفيق هذا بعض صفات الجوارى — وكان فى الأصل ابنا لأحدى جوارى اسماعيل — فهو يرضخ للارادة الأقوى منه لكنه الرضوح الظاهرى، ثم يحاول بالالتواء أن يستعيد ما فقده، وما من انسان وثق فيه إلا وخانه، كانت تأكله الغيرة من عرابى لذلك بيت له نية الانتقام.. بينما كان عرابى مثاليا طيبا ظن أن الخديوى قد صفا قلبه عندما صافحه وعانقه فيما بعد..

وبسبب انتصار عرابى عمت الفرحة مصر، وراح الناس يرسلون اليه الشكاوى والمظالم لانصافهم من ظلم الأثرياء والمرابين، وتشكل المجلس النيابى على هيئة جمعية تأسيسية لبحث الدستور وصار له حق مناقشة الميزانية.. وهو ما لم يكن يريدہ الاغليز — وهو نفس السبب الذى عزلوا بسببه اسماعيل — لكن الوضع هذه المرة اختلف، إذ كان توفيق نفسه تحت الحماية الاغليزية شاعرا بالعداء لعرابى الذى تجرأ وشهر سيفه فى وجه من فوق صهوة جواده..

ولما وجد السلطان التركى أن عرابى قد صار صاحب الكلمة فى مصر، أرسل سرا من يعرض عليه أن يتبوأ حكمها بدلا من سلالة محمد على، مقابل أن يضرب النفوذ الاغليزى والفرنسى وبشرط ان يدين بولائه للدولة العثمانية، ورفض عرابى. لم يقع فى فخ السلطان، وقال: "أنا لا أريد شيئا

لشخصي، بل المساواة بين الطبقات واحترام الفلاح وعدم تسخيرهم وعدم اعتصاب ريع أرضه". لذلك كرهه السلطان التركي، وزاد كرهه عندما وجد أن عرابي قد أصبح أمل المسلمين خارج مصر أيضا، فاضحا بذلك زعم الخلافة الدينية التي كان يتمسح بها العثمانيون.. وقرر السلطان ارسال حملة عسكرية الى مصر لتأديب عرابي، فما كادت تصل الى اللانقية بسوريا حتى هاج الناس ضدها وامتنعوا عن التعامل معها. وعندما شذ أحد التجار عن اجماع المفاطعة وباع للأتراك، حرق السوريون محاله وتركوه يبكي دون مساعدة شامتين فيه؛ فليساعذك سادتك الأتراك..

أما إنجلترا وقد شعرت بخطورته على خططها الاستعمارية فقد سارعت وعرضت عليه منحة شهرية ضخمة مدى الحياة له ولأسرته من بعده، مقابل أن يغادر مصر ويعيش في أية دولة أوروبية يختارها. لكنه أبى ورفض عرضا مماثلا من فرنسا.. فأدركت الدولتان أنه عازم على اكمال الطريق، فجاءت الأساطيل الإنجليزية الى ميناء الاسكندرية بقصد احتلال مصر بلد قناة السويس عسكريا.. وأخطأ عرابي فسمح للحديوى بالسفر الى الاسكندرية بعد ان كان في قبضة يديه بالقاهرة، فعل ذلك رغم معارضة معظم أعوانه، وعلى رأسهم بطل الشجعان المسمى محمد عبيد..



◆ الفصل التاسع ◆

لمحات من خيانات الأعيان .. وردم الفتاة ومد الامتياز ..

كانت خيانه توفيق قد اوضحت يقينا عن الجميع وأفتى العلماء باستباحه دمه، لكن عرابى جفل من القتل ورفض متعللا بأن قتل الخديوى سوف يعطى فرصة للدول الأوروبية للتدخل المسلح على أساس أن الأمن فى مصر غير مستتب. وهنا عرض عليه نطل الشجعان محمد عبيد أن يقوم باغتيال توفيق على أن يقبض عليه عرابى بعد ذلك ويحاكمه ويشنقه، وبهذا يقطع الطريق على الذئاب الأوروبية..

وفات عرابى الطبيب وعبيد المتحمس أن التدخل كان وشيك الوقوع، وأن اختلاق الأعذار سهل ميسور.. فقد زعم الاجليز أن عرابى قد قام باصلاح المدفعية الساحلية للاسكندرية، وفى هذا تهديد خطير على بريطانيا "!!".. وبناء عليه فقد اكنظت ميناء الاسكندرية بالبوارج الحربية من النمسا وأمريكا وألمانيا واليونان وروسيا القيصريه الى جانب الأسطول الفرنسى

والأسطول الإنجليزي.

وقبل فجر يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ كانت جميع القطع قد تراجعت الى عمق البحر تاركة المجال للأسطول بريطانيا العظمى منه للشايطىء. حيث بدأت مدافعه فى تمام الساعة السابعة تدك المدينة الساحلية الجميلة فوق أهاليها العزل.. وكان قائد الأسطول على يقين من أن استحكامات الشايطىء المصرى قديمة يرجع بعضها الى عصر محمد على، وكان يقدر لاسكانها مدة نصف ساعة لا تزيد.. لكنه منى بخيبة أمل بالغة، إذ استمر الضرب طوال النهار، وكان المصريون يعاودون الضرب كلما انقشع دخان القنابل الإنجليزية.. وظلت المقاومة مستمرة حتى نهذت الذخيرة المصرية ونهدمت المنازل..

نقل عرابى جيشه الى كفر الدوار، ولم يقدر الانجليز على مواجهته هناك وخشوا ان يفرق عليهم الدلتا، فعزموا على الالتفاف من ناحية الشرق أى من ناحية قناة السويس، فتمركز لهم عند التل الكبير ولكن متأخرا، وقرر ردم القناة كى يغلقها فى وجه سفنهم القادمة بالجيش من الهند، غير أن ديلسبس وعده باغلاقها فى وجوههم.. ولم يثق عرابى وقرر بعد فوات الأوان بث الألغام فى مدخل القناة، لكن التلغيم لم يتم!.

فى ٢٠ أغسطس احتلت قوات البحرية البريطانية بورسعيد،

وتقدمت بطول الممر المائى، مما دعا القيادة المصرية الى اجتماع حربي فى نفس اليوم هى كفر الدوار قررت فيه ردم القناة وردم الترعة العذبة، وأرسلت برقيه بهذا المعنى الى قائد الجبهة الشرقية.. إلا أن الوقت كان قد فات على تنفيذ هذا القرار الاستراتيجى .

تقدمت جحافل الانجليز من الشرق أى من عند قناة السويس، واقربت من مشارف التل الكبير مدججة بأعنى الأسلحة وبأعداد تفوق اعداد الجيش المصرى بأربعة أضعاف.. ورغم هذا فقد استبسل المصريون فى الدفاع، ودام القتال - منذ ضرب الاسكندرية - قرابة الشهرين.. لكن اللعنة على خيانة السادة..

قال المؤرخون الأجانب المنصفون: "إن انتصار الانجليز على عربى لم يكن راجعا الى كفاءة قواتهم، وإنما الى خيانة بعض الأعيان على رأسهم سلطان باشا".. ففى ظلام الليل قام أذئاب الخونة بارشاد الانجليز الى المسالك الخفية لينقضوا على قلب جيش الفلاحين وعلى استقلال مصر. لكن مصر لم تكن نهمهم بقدر ما كانت تشغلهم ثرواتهم وكيفية الاحتفاظ بها بشقى السبيل حتى لو صاروا أذلاء للانجليز.. واحتلت بريطانيا العظمى سيدة بحار الدنيا وقتها مصر وبالنالى السودان

بالتبعية..

وكان أول ماسعملته ان أمرت خديويهم توفيق بالغاء الجيش المصرى بدعوى مناصره للعراييه، وحصر مهمته فى المحافظة على النظام داخل البلاد، أى تحويله الى جيش بوليسى، خفض الى ستة آلاف جندى فقط.. وبعد تنفيذ هذا التخفيض اتخذت منه ذريعة لبقاء جنودها فى مصر بحجة حمايتها لعدم وجود جيش خاص بها!!

لكن "ولسلى" قائد قوات الاحتلال اعترف فيما بعد بأنه "لو كان عرابى قد سد القناة فانا كنا سنبقى زمنا طويلا لا نقدر على أكثر من فرض حصار بحرى على مصر.. لقد أنقذنا تأخره عن ذلك يوما واحدا.."

بعد معركة التل الكبير دخل الإنجليز القاهرة فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢ لبدأ عهد الاحتلال البريطانى (وكانت بداية حربهم ضد مصر فى يوم ١١ يوليو من نفس العام).. وانزعجت الدول الأوروبية الأخرى من استئثار إنجلترا بالشئون المصرية وبخاصة قناة السويس، وحتى تسكتهم الحكومة الإنجليزية أعلنت ضمانها حرية الملاحة والمرور فى القناة وأكدت صفتها الدولية.. وتم تدوين اتفاقية القسطنطينية فى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٨٨ التى تعطى "حق المرور فى القناة لسفن جميع الدول دون

استثناء عدا الدول التي تكون في حالة حرب مع مصر". وظلت شركة القناة الأجنبية التي يرأسها ديلسبس تستولى على دخلها. وكان نصيب الإنجليز منه يزيد عن ٤٤ في المائة.. ويروى أنه في أواخر عام ١٩٠٩ تقدمت الشركة بطلب من النظارة المصرية "أي الحكومة المصرية" مد امتياز قناة السويس لأربعين عاما أخرى "!!" أي حتى أواخر عام ٢٠٠٨. وقد قوبل هذا المشروع بمعارضة ضارية من كافة القوى والاتجاهات بمصر، وأصدرت طلعت حرب كتابا بعنوان "قناة السويس" هاجم فيه مد الامتياز وأعاد ذكر تاريخ الشركة الأسود مع المصريين المغلوبين على أمرهم.. وانتهى كل ذلك باغتيال رئيس الوزراء المصري وقتها وباعتقال مشروع المد نفسه..

◆ الفصل العاشر ◆

تنزيحات على كبح البطل الجسود.. ورد الفلاح على الانجليزى ملنر..

ويحكى انه فى أعقاب الاحتلال احتفى رفيق عرابى محمد عبيد، شعلة الحماسة والنقاء، الباسل الذى قاتل حتى النهاية، والذي كان صيته عند الناس عظيما، فلما اخفى ولم تظهر له جثة ظلوا يعتقدون فى نجاة من الموت، وراحوا يشيعون انه حى وانه دائم التنقل هربا من الانجليز ومجهزا لحوله أخرى ضدهم، تحول الى أسطورة النقاء الثورى التى يعشقها الناس، والتى ينسجون من حولها الأساطير وينشدون من أجلها الملاحم، الأقدام والطيبة والطهارة الثورية..

ومع ازدياد عسف الانجليز كان كره المصريين لهم يتضاعف، وقد حدث فى عام ١٩٠٦ ان كان عدد من ضباط الاحتلال البريطانى يصطادون الحمام قرب قرية مصرية آمنة صغيرة اسمها "دنشواى" فقتلت رصاصاتهم احدى الفلاحات وحرقت بعض الأجران، مما استفز الأهالى فخرجوا بطاردوهم، وحدث ان مات أحد هؤلاء الجنود بضربة شمس، وكان ذلك فى الثالث عشر

من شهر يونيو الفائظ.. وما أن وصل الخبر الى القاهرة حتى صدر الأمر بتشكيل محكمة خاصة نقلت معها المشانق الى القرية من قبل نظر القضية وملايساتها!!.. وما دأمت المشانق قد نصبت فقد اجتمعت "المحكمة" ونظرت "القضية" وبعد أن "تداولت" أصدرت حكما يقضى باعدام أربعة من الفلاحين وبسجن وجلد سبعة عشر آخرين!!.. ولما كان حكمها هذا غير قابل للاستئناف أو للتصديق عليه من أية جهة عليا فقد تم تنفيذه في اليوم التالي مباشرة . ويشنق الأربعة وجلد الآخرين على مرأى من أهالى قرية دنشواى نفسها!!..

واستكمالا للشكل "الديمقراطى" فقد حضر خبير الطب الشرعى التنفيذ وشهد بصحة الشنق وشهد أيضا بصحة الجلد "!!" ..

وقد هزت هذه المجزرة أصحاب الضمان من الأوروبيين . فما أن بلغ أمرها الى الكاتب الايرلندى الساخر الشهير "برنارد شو" حتى هب يهاجم هذه العدالة الانجليزية، وكتب قائلا: "إن ما فعله الفلاحون المصريون لا يخرج عن نفس ما كان سيفعله نظراؤهم من الانجليز لو انهم اضيروا بنفس ما اضيروا به فى المال والحرمات، وان الصباط الانجليز لم يكونوا فى الخدمة يوم الحادث، بل كانوا عابثين بلعبة أساءوا ممارستها، وأن الفلاحين لم يكن بإمكانهم التحمل إلى حين الشكوى لنوى الأمر الذين هم

من الانجليز أيضا!!.. وأن أحد المشنوقين — يقصد حسن محفوظ — كان كهلا في الستين ولم يكن هناك مبرر لشنقه!!..

ثم انهال ساخرا من لورد كرومر المندوب السامي الانجليزى بالقاهرة ومن مساعده. وعندما دافع هذا الأخير عن جريمة جلد الفلاحين بالسياط لأن المصريين فى زعمه "قديرون لا يابهون للموت وانما يؤذيهـم السوط" رد عليه شـو هارنا: "اذن فلماذا شنقتم أربعة من هؤلاء القديرون؟!..

وظلل المصريون يترقبون عودة البطل الجـسـور، ولم يدم انتظارهم طويلا.. إذ سرعان ما بعث من حديد كأقوى ما يكون فى ملايين البسطاء والفلاحين، الذين هبوا بعد هزيمة النـل الكبير بنحو ربع قرن يشهرون سلاح العداء ضد الانجليز، وقد وجدوا زعيمـا جديدا له اسم سعد زغلول، الذى كان قد عرف فى شبابه أحمد عرابى وعبدالله نديم، وكان مثلهما خطيبا بارعا.. وقد حدث فى أواخر عام ١٩١٩ ان وصلت لجنة انجليزية سميت باسم رئيسها ملتر بغرض الاتصال المباشر بالمصريين — قفزا من فوق رعوس الزعماء — لمعرفة أسباب السخط التى أدت بهم الى القيام بثورة مارس من نفس العام.. وطلب سعد زغلول من مساعده الـرهيب عبدالرحمن فهمى العمل على مقاطعة هذه اللجنة، فنشر هذا أعضاء تنظيمه السرى بطلبون من الأهالى عدم التحدث معها، وكانت مقاطعة مدهشة ناجحة الى

أقصى حدود النجاح فى الريف والمدن..

و ذات يوم هبطت هذه اللجنة الى احدى قرى الجيزة، فراح
الفلّاحون — وكان الأوروبيون يسمونهم بأصحاب الجلابب الزرق
— يفرون من وجهها حتى لا يتحدثون اليها.. وعندما ضيقوا
الخناق على واحد منهم سأله ملنر بواسطة مترجمه عن رأيه
فى أسباب ثورة مارس ١٩١٩ ورد الفلاح:
— اسأل سعد..

وحاول ملنر أن يكسب وده بالتبسط معه، فسأله عن عدد
المرات التى يروى فيها زراعته، وبعد برهة صمت رد الفلاح:
— اسأل سعد!!



◆ الفصل الحادى عشر ◆

فصل من ثورة أصحاب الجلالين الزرق.. ومن دسائس الرأس الكبير..

فى الفترة من عرابى الى سعد كانت فرنسا قد أطلقت يد
انجلترا فى مصر، مقابل اطلاق يدها فى بلاد أخرى.. وعندما
قامت الحرب العالمية الأولى صار عساكر الحكومة يجمعون
الفلاحين ودوابهم للعمل فى خدمة الانجليز، فى تهديد الطرق
ونقل المعدات الثقيلة عبر الصحراء، ولجأت الحكومة الى العنف
لجمع الرجال. فكان عساكرها يكمنون عند مشارف القرى
ساعة الغروب، حيث ينقضون على الفلاحين العائدين من
حقولهم وينتقون منهم أكثرهم صحة ويرسلونهم تحت تهديد
السلاح والسياط الى خدمة جيش الاحتلال، وهو نفس ماكان
يُعمل معهم عند حفر قناة السويس.. ولهذا سخط الفلاحون..
كذلك سخط أصحاب المال من المصريين من مزاحمة الأجانب
لهم واستئثارهم بكل النشاط الصناعى والتجارى، وبالمثل
أصحاب الأقطان حيث أجبروا على بيع قطنهم للمستوردين
الانجليز بسعر أقل من سعره العالى، وأبضا الطبقة المتعلمة

التي كانت محرومة من المناصب الكبيرة لانفراد الأجانب بها..

فلما انتهت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨ - وكانت روسيا قد خرجت منها بعد ثورتها الاشتراكية - تكون وفد من عيون البلد للمطالبة بالاستقلال سمي الوفد المصري - الذي صار بعد ذلك حزب الوفد - ولما كانت تنقصه الصفة الرسمية للنمثيل فقد تم تدميمه بمئات العرائض الموقعة من الجماهير نفوضه في التحدث باسم مصر (وهذا أشبه بما فعله عرابي عندما طلب من معاشر الناس أن تفوضه في التحدث باسمها).. وكما قاوم الإنجليز أحمد عرابي فقد قاوموا تحركات الوفد المصري عن طريق الأحكام العرفية التي كانت مفروضة وقتها.. لكن عملية جمع التوقيعات اتسعت وأضيفت إليها الخطب في المتديات وطبعها وتوزيعها، بحيث صار المناخ مهياً تماماً للثورة..

وكان سعد زغلول مريداً للشيخ محمد عبده، آمن مثله بأن طريق الاستقلال يمر بالإصلاح الاجتماعي وبتعليم الناس.. لذلك أيد قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة.. ومن منزله صدر المنشور الخاص بإنشاء أول جامعة مصرية، والتي تعرف الآن باسم جامعة القاهرة..

وقد جاءت شرارة الثورة في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم

السبت ٨ مارس ١٩١٩ عندما ذهب الى بيت سعيد زغلول -
الذى كان يسمى بيت الأمة - ضابط بريطاني معه مترجم
قبرصي وخمسة من الجنود الانجليز المسلحين بالسكندسات فى
سيارة كبيرة بريطانية حمل مدفعا رشاشا. حيث وقف ثلاثة
منهم على الباب الخارجى للمنزل بينما دخل الضابط ومترجمه
والجنديان الآخران على الزعيم فى غرفة مكتبه وأبلغه أمر
اعتقاله فورا وبلا مناقشة. ثم صحبوه معهم الى سيارتهم
الحربية التى انطلق به الى كفة قصر النيل (مكان فندق
هيلتون وجامعة الدول العربية الآن).. ثم نقل الى بورسعيد
عند مدخل القناة. ومع عدد من رفاقه نقلوا الى منفاهم فى
جزيرة مالطة بالبحر المتوسط..

ورغم ان هذا الاعتقال تم فى كتمان شديد إلا أنه لم يمض
يوم واحد حتى عرفتة القاهرة كلها. ولم تمض ثلاثة أيام حتى
عرفته مصر كلها حتى أعماق ريفها.. وفى اليوم التالى
مباشرة قامت مظاهرة من طلبة الحقوق والهندسة والمعلمين
والطب والزراعة والتجارة. ورغم انهم كانوا فى مظاهرة
سلمية إلا أن الجنود الانجليز أطلقوا عليهم الرصاص.. فانسعت
المظاهرات فى اليوم التالى لتشمل طلبة الثانوى والابتدائى
والأزهر والمعاهد الدينية.. ثم عمال المائت والسكك الحديدية

والحامون ورجال القضاء والأطباء والعلمون. وكان خطباء المسلمين يخطبون في الكنائس، وخطباء المسيحيين يخطبون في المساجد. محبطين بذلك محاولة الإنجليز لإثارة الفتنة الطائفية بين المصريين على أسس منهجهم الشهير: فرق تسد.. ثم بلا كل ذلك اصراب عام شمل جميع المئات والمهن وفي شتى أنحاء مصر.. وبعده اشتعلت الأعمال الفدائية. فقتل الثائرون الجنود الإنجليز بالشوارع ليلا في القاهرة والاسكندرية وبورسعيد وغيرها، بما اضطرهم إلى عدم الخروج إلا في مجموعات مسلحة. ثم انتقلت أعمال العنف على أشدها في باقي المدن والمراكز والقرى. وانتشرت الحرائق وأعلنت بعض المناطق استقلالها وخروجها عن طاعة الحكم الإنجليزي منها مديرية المنيا وقررتى زفتا وميت غمر ومناطق أخرى، وأعلنت كل جهة من نفسها جمهورية مستقلة! بعد شهر كامل اضطر الإنجليز إلى التراجع بالافراج عن سعد زغلول ورفاقه. وبالسماح للوفد المصري بالسفر إلى أي مكان.. وقد وقع هذا القرار "نائب جلالة الملك الخاص أ. هـ هـ اللبى" ..

والمقصود بجلالة الملك هنا هو ملك الإنجليز بالطبع وليس ملك مصر..

وانتهى الأمر بالفوز بخطوة هامة على طريق الاستقلال، إذ أعلنت مصر دولة مستقلة ذات سيادة من حقها إنشاء القنصليات التي تمثلها بالخارج كدولة مستقلة بعد أن كانت بلا وزير خارجية، وأصبح لها دستور سمي بدستور ١٩٢٣ كان من شأنه أن يحدد من سلطة الملك والأعيان بعض الشيء، وكانت خبرة المصريين قد علمتهم أن النكبات تتكاثر مع وجود الحاكم المطلق ومع غياب الحكم النيابي والحرية..

غير أن هذا الاستقلال كان مشوبا بأربعة تحفظات أهمها التحفظ الخاص بتأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية بمصر. أي باستمرار تسخير قناة السويس لصالح إنجلترا..

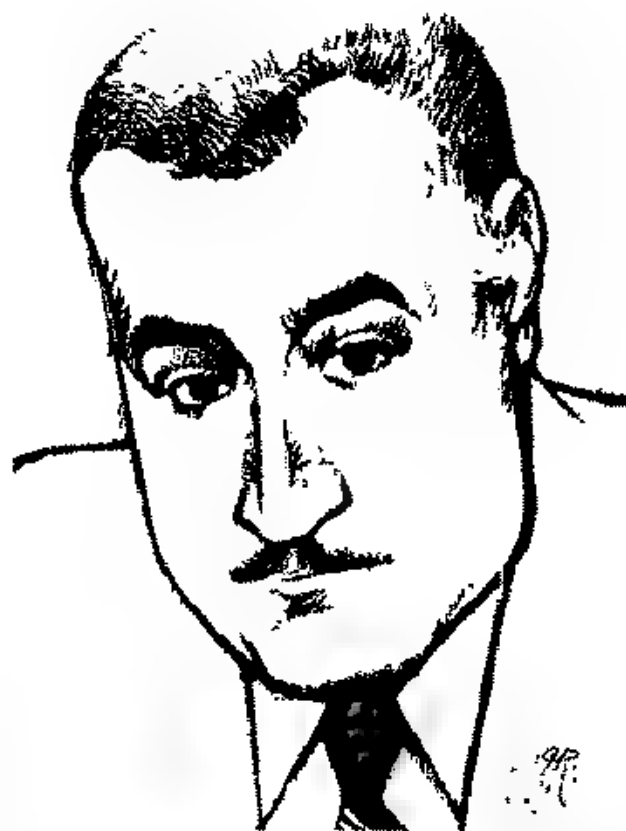
وتولى سعد زغلول أول وزارة دستورية، فقام على الفور بالعمل على أن تستقل العملة المصرية عن العملة الإنجليزية، وعلى زيادة ميزانية التعليم وتشجيع الفنون الجميلة، وبيع أكبر جزء ممكن من أرض الحكومة إلى صغار المزارعين، والاستغناء عن عدد كبير من الموظفين الأجانب..

كانت الجماهير هي التي خلقت سعد زغلول رعيما، وهي التي أججت بداخله شعلة الثورة، وحسقت من خلاله خطوات هامة على طريق جعل "مصر للمصريين" .. وجعلت منه أقوى وأحب شخصية تعيش على أرض مصر، ورئيسا لحزب الأغلبية

الشعبية الساحقة.. لذلك فقد كرهه الملك وكرهه الإنجليز. ولذلك أيضا كان يوم وفاته حزنا وبكاء في كل دار مصري. وشتماته في قصر الملك وفرجا في دار اللندوب السامي البريطاني.. وما أن تولى خليفته مصطفى النحاس باشا رئاسة الوزارة حتى وضعت في طريقه كمية هائلة من العراقيل أدت إلى تقديم استقالته..

لكن النحاس باشا لم يكن بالرجل السهل، فقد خرج من عند الملك وتوجه رأسا إلى البرلمان حيث شرح للأعضاء بطريقة البارة في الخطابة كافة المضايقات التي حاربه بها القصر، فهبوا ثائرين يعربون عن سخطهم، ودفع الغضب بأحدهم وهو الكاتب المعروف عباس محمود العقاد إلى التفوه بعبارة الشهيرة:

”ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس في البلد في صيانة الدستور وحمايته.“
وكان يعنى بأكبر رأس في البلد الملك فؤاد نفسه..



◆ الفصل الثاني عشر ◆

دقائق من يوم تحطيم السلاسل ومن لعبة القطارات الحديدية

قبل الرأس الكبير الملك فؤاد النجدي بقبوله لاستقالة
الحاس باشا، وبتكليفه لعدد حزب الوفد للدود اسماعيل
باشا صدق بتأليف وزارة جديدة فى يونيو ١٩٣٠ سميت بوزارة
القبضة الحديدية للجوئها الى شتى أساليب القمع
والاعتقالات، وكان الملك يريد البلاد بلا دستور، بلا برلمان، كما
كان يريد ضرب حزب الوفد، ولهذا فقد أمر صدق باشا بفض
مجلس النواب ابتداء من اليوم التالى لتولييه الوزارة!! لكن
رئيسا مجلسى النواب والشيوخ - ويصا واصف وعدلى يكن -
أبلغاه أن مرسوم التأجيل - طبقا للدستور - يجب أن يتلى
بالمجلسين، فطلب ألا يتحدث أى عضو من النواب بعد تلاوة
المرسوم لكن طلبه رفض، فما كان منه إلا أن أغلق أبواب
البرلمان بالسلاسل الحديدية، مما جعل ويصا واصف يصدر أوامره
لأحد رجال اطفاء المجلس بتحطيم السلاسل بالبلطة، وتم ذلك
فسمى هذا اليوم بيوم تحطيم السلاسل!!

ورد صدقى باشا بأن استصدار مرسومه ملكيا بفض الدورة البرلمانية كلها، ودفع البوليس الى طرد النواب الذين حاولوا الاعتصام بالمجلس، ضاربا عرض الحائط بما للمجلس من حرمة ومن حصانة برلمانية!!.. وانتهى كل ذلك بأن خطا الرأس الكبير خطوته الكبرى باصدار مرسومه السامى بابطال دستور ١٩٢٣ نهائيا، بحجة أنه مقتبس من الدساتير الأوروبية المتقدمة فهو لا يصلح لبلادنا المتخلفة، وأنه أشبه بالثوب المصفاض لشعبنا الذى لم ينضج بعد لممارسة الديمقراطية!!..

لكن عندما ثار "هذا الشعب الذى لم ينضج بعد لممارسة الديمقراطية" أعلن صدقى باشا أنه مادام الناس يهوون الدساتير فهو يقدم اليهم دستورا جديدا، سمي بدستور ١٩٣٠. وقد جاءت بنوده مطابقة لرغبات القصر. ثم شرع فى تكوين حزب خاص به سماه - دون حياء - حزب الشعب، استغل السلطة فى اكراه العمدة والمشايخ على الانحياز به، وفى تهديد كل موظف بالفصل ان لم ينضم. ولم ينس طبعاً أن يعين نفسه رئيسا لهذا الحزب، وان يصدر له جريدة سماها - أيضا! - جريدة الشعب، لم تكن تنشر سوى بيانات التأييد والتحبيز لكل ما تأتى به حكومته من اجراءات قمعية لهذا الشعب الذى تسمت باسمه!!..

بعد ذلك أعلن صدقى باشا عن اعتزامه اجراء انتخابات

جديدة، أراد أن يضمن بها أغلبية برلمانية لحزبه — ولو صورية — حتى يتمكن من التفاوض مع الإنجليز تحت زعم تمثيله للأغلبية.. ولقد فهم الوفد — حزب الأغلبية الأصيل — هذه الخيلة، فرأى رئيسه مصطفى النحاس أن يتحالف مع حزب الأحرار الدستوريين فيما سمي وفتها "عهد الله والوطن" لجعل هذه الانتخابات كأن لم تكن، وذلك بتحريض المواطنين على مقاطعتها.. وكانت هذه بداية المتاعب الدموية للوزارة الصديقة، حيث لم تتوان جميع الهيئات عن اظهار رفضها له وبكل السبل.. وقرر الحزبان المتحالفتان أن ينشر الزعماء فى أنحاء البلاد لأفهام الناس أبعاد المؤامرة، وكان من بينهم عدلى يكن وفتح الله بركات ومكرم عبيد والدكتور حسين هيكل وآخرون، وبالطبع مصطفى النحاس خليفة سعد زغلول.

كان اليوم المحدد لسفرهم الى طنطا فى أواخر عام ١٩٣٠ يوما عجيبا، فغيوم الشنء تحجب دفء الشمس وتخيّل نور النهار الى الرمادى المقيض المثير للتوتر، وقوات الحكومة تزيد من هذا التوتر بحصارها لمحطة السكة الحديد من جميع الجهات، تنفيذا لأوامر صدقى باشا الصادرة بمنع سفر الزعماء الى طنطا بكافة السبل حتى ولو بالقوة المسلحة، وكانت طنطا إحدى معاقل الوفد التى يحظى فيها بأغلبية شعبية..

ويحكى أن ميدان باب الحديد (رمسيس حاليا) كاد أن يمتلئ بعدد كبير من المواطنين الذين تجمعوا عن قرب ومن حول تمثال نهضة مصر (الذى نقل بعد ذلك إلى قرب جامعة القاهرة) في انتظار معرفة ردود أفعال زعمائهم.. ولم يدم ترقبهم طويلا، فمع اقتراب موعد قيام الفطارات وصلت السيارات التي هبط منها الممنوعون من مغادرة القاهرة، بالطرابيش فوق رؤوسهم والمنشآت أو العصي في أيدي بعضهم، وسمات الوقار على وجوههم.. وتحفزت القوة المسلحة للتصدي لهم، وساد صمت التوتر لدى الأهالي المحتشدين.

نظر الزعماء إلى البنادق المصوبة اليهم ثم إلى الجموع المحتشدة، ومنهم استمدوا الشجاعة التي جعلتهم يتقدمون شامخين في خطوات واثقة يشقون طريقهم إلى مدخل المحطة غير هيابين، الأمر الذي جعل أفراد القوة المسلحة يجمدون في وقفستهم مأخوذون من هذه الجسارة، وقبل أن يستنفقوا ليحركوا ساكني كانت الخطوات الوائقة قد عبرت المدخل وصارت تدق رصيف قطارات الوجه البحري..

وكما أصابت هذه الجرأة أفراد القوة المسلحة بالشلل المؤقت فقد هزت انفعال الأهالي فانطلقوا يهتفون بسقوط صدق ياشا ووزارته، ثم حركوا قاصدين الدخول إلى المحطة، لكن القوة المسلحة تصدت لهم وانشغلت في منعهم وفي تفريقهم..

بينما كان الزعماء يصعدون الى احدى عربات الدرجة الأولى، وهم يسمعون هدير الناس بالخارج يهتفون بحياتهم.. ولم يدم كل هذا سوى دقائق قليلة جدا، تفرق بعدها الأهالي بالخارج منتشرين الى أرجاء القاهرة سيرا على الأقدام أو بالترام أو بعربات الخنطور، يروون لكل من يقابلهم عن هذه الحادثة التي بهرتهم.. بينما الزعماء فى داخل القطار يشكرون الركاب الذين اقبلوا على تحيتهم. لكن سرعان ما أخذت ايديهم الفلقة تخرج الساعات من الجيوب لمعرفة الوقت، لقد أظف موعد حرك القطار ومع ذلك لم يبق جرس القيام!!.. وراحت أنظارهم المتوترة تراقب الرصيف عليهم يجدون من يفسر لهم سر هذا التأخير، وقد داخلهم الشك من أن يكون صدقى باشا قد ألغى الرحلة كلها..

لكن دقائق الجرس النحاسى دوت فى أرجاء المكان وبدأ القطار يتحرك مغادرا المحطة، وآلقه البخارية تنفث دخانها الكثيف الذى تصاعد الى الجو الملبد بالغيوم ليزيد من قتامة النهار الذى كان مازال فى أوله.. وارتاح الزعماء الى انتصارهم هذا، وتملكت النشوة قلوب الركاب فراحوا يتحدثون معهم فى شئون الساعة، وكان الناس وقتها يتناقشون فى كل كبيرة وصغيرة اذ كان العمل السياسى ملكا للجميع ولم يكن حكرا

على القادة وحدهم..

فجأة توقف القطار.. ثم اهتز متقهضاً في عدة أرجاعات.. ثم ثبت في مكانه ثانية، وبعدها عاد إلى سيره مرة أخرى. فعادت المناقشات دون أن يخمن أحد سر توقف القطار واهتزازاته، غير أن نظرة سريعة إلى المناظر المتحركة بالخارج جعلت صاحبها يهتف:

— لقد ضل القطار!!

نظر القريبون إلى الخارج ضاحكين: كيف يضل وهو يسير على قضيبين يحددان اتجاهه؟! لكنهم ما بتروا ضحكاتهم مدققين: هذه مشارف العباسية تلوح واضحة دون أدنى ريب، فكيف حدث هذا؟!

ثبثنا فثبثنا خمنا الموقف، فعندما توقف القطار فصلت عنه العربات التي يجلسون بها، وعندما حدثت الأرجاعات والاهتزازات كانت هذه العربات قد ألحقت بقاطرة أخرى، هي التي نتهاذى بهم الآن على مهل فوق خط العباسية!! بينما القطار الأصلي يواصل طريقه اليومي العادي عبر الدلتا إلى طنطا.. وكانت هذه هي الخدعة التي تمتق عنها ذهن صدقي باشا، والتي انتهت بان وجد الزعماء أنفسهم على مشارف صحراء العباسية بدلا من طنطا حيث آلاف المواطنين في انتظارهم.. وبأمل أحدهم وجوه الركاب الآخرين في رثاء، هاهي

دعابة صدقى السخيفة خضرمهم الى مشارف صحراء
العباسية بعد أن كانت وجهتهم بنها أو طنطا أو
الاسكندرية.. وكان الركاب ينظرون الى الزعماء منتظرين
منهم عملا ما، تصرفا ما، ألبسوا زعماء؟!

فتح أحدهم النافذة ناظرا الى القاهرة مناديا على السائق أن
يقف، لكن دوى الآلات كان هادرا، وحتى لو سمعه السائق فلن
يلتفت اليهم، ولم يكن بالعربة "كمسارى" واحد يتفاهمون
معه!!.. وتناثرت عبارات الركاب محمومة غاضبة، تسب وتلعن
صدقى باشا وبطشه؛

— يسمى نفسه القبضة الحديدية، وهو ليس إلا قفازا حريريا
فى قبضة حديدية، هى قبضة الانجليز فى معظم الاحيان،
وهى قبضة الملك فى أحيان أخرى!!

ثم سرعان — حسب الطبع المصرى — ماتم اكتشاف بعض
الجوانب المضحكة فى الموضوع فانقلبت اللعنات الى نكات
تسخر من رئيس الوزراء.. بينما القطار يتسكع بهم على
شريط العباسية منجها الى مركز "الصف" بالجيرة، يتقدم تارة
الى الامام ثم يتراجع الى الخلف، والراكبون لا يملكون شيئا ازاء
هذه الرحلة الاجبارية.. ومع حلول موعد الغداء تقاسموا
السندويشات التى كانت مع بعض الركاب، بينما أخذ الزعماء

يتبادلون رواية ما حدث لهم منذ أيام قليلة سابقة عندما توجهوا الى مدينة بنى سويف للاجتماع بالناس هناك..

كانت بنى سويف هي المدينة الأولى التي فكروا في التوجه اليها، وبشروا ذلك في الصحف.. وعندما وصلوا الى محطة المدينة، وجدوها خالية إلا من رجال البوليس، الذين منعوا المواطنين من دخول المحطة ومنعوا الزعماء من مغادرة القطار منذ وصوله وحتى حلول الظلام، حيث تحرك عائدا بهم الى القاهرة دون أن تطلأ أقدامهم أرض بنى سويف.. لكنهم لم يأسسوا وأعلنوا عن اعتزامهم التوجه الى طنطا فكان نصيبهم هذه المرة تلك الرحلة الغريبة في هذا القطار العجيب الذي يسرع ويبطئ ويتقدم ويتراجع كأن من يقوده سائق معتوه لا يثبت على رأى!!..

وأدركوا أنه كان يتحتم عليهم السفر فى كتمان وسرية حتى يفوتوا على الحكومة عرقلة جهودهم، وبالفعل قرروا أن يلزموا الكتمان فى خططهم التالية، وأن يسافروا بسياراتهم الخاصة متجنبين قطارات الحكومة العجيبة..

ومع حلول الظلام، وعند محطة العسكرية بين المعادى وطرمه انتهت الرحلة، وأمروا بالنزول، فافترقوا على موعد لاحق، حيث فوجئ أهالى بنى سويف بالزعماء بينهم ماهى الا أقل من الساعة حتى كانت المدينة كلها قد علمت بالخبر وتوجهت الى

حيث الزعماء، وكان مجرد تجمعهم بهذا العدد الضخم يشكل موافقة منهم على مقاطعة الانتخابات الصديقة، وانتهى اليوم باقتياد الزعماء معتقلين الى القاهرة حيث أفرج عنهم بعد خضيق هزلى.

وجرت الانتخابات فى يونيو ١٩٣١ حيث سبق المواطنون الى اللجان، وحيث زورت كشوف بأسماء كان بعضها قد فارق الحياة وكان بعضها الآخر لم يولد بعد، لكن جميعهم انتخبوا مرشحى الحكومة الحديدية... وفى بجاجة فائقة أعلن صدقى باشا ان الانتخابات قد سارت سيرا حسنا وفى جو هادىء، وان حوالى ٧٠ فى المائة من عدد الناخبين قد توجهوا الى الصناديق ليعلنوا عن تأييدهم لأعضاء حزبه، وبذلك يكون قد فاز بالأغلبية الساحقة فى مجلسى الشيوخ والنواب..

بهذه الطريقة كون صدقى باشا مؤسسائه ذات الأسماء البراقة التى لم تكن سوى أدوات سلطة واستبداد.. وبذلك يكون هو رائد تروير الانتخابات فى تاريخ مصر الحديثة وله حق الريادة، إذ كانت له سابقة مماثلة ارتكبها عام ١٩٢٥ وكانت سذاجة منه عندما توقع أن يصدقه الناس أو حتى الأجلىير.. ولأنه لجأ الى العنف، ولأن العنف يولد العنف، ولأن المقاومة السلمية صارت غير مجدبة، فلم يجد الناس أمامهم غير الاغتيالات السياسية، فقتل رئيس مجلس النواب المزور، وألقيت

القنايل على أنصار الوزارة ومحاسبيها.. فاعتقلت الحكومة أعدادا ضخمة من المواطنين بتهمة التخريب والاعتداء على الدستور فيما سماه صدقي باشا بالحرب الأهلية في مصر "!!". غير أن كل هذا العنف لم ينقذ صدقي باشا من الإقالة في سبتمبر ١٩٣٣ بعد أن أضاع من عمر الوطن حوالى الثلاث سنوات.. وبمجرد زوال هيلمان الحكم عنه طرد من رئاسة الحزب الذى هو منشئته والمسمى بحزب الشعب لىبقى الشعب نفسه. الذى أجبر الملك على إعادة دستور ١٩٢٣ مرة ثانية ليوقع النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦، والتي نصت على خروج الإنجليز من الجيش والبوليس وعلى إلغاء الامتيازات الأجنبية بحيث يخضع الأجنبي لما يخضع له أصحاب البلاد. وصارت مصر عضوا بعصبة الأمم التى هى السلف المنتخب لهيئة الأمم المتحدة الحالية. كما جاء فى المادة الثامنة من هذه المعاهدة مايلى: "بما أن قناة السويس التى هى جزء لا يتجزأ من مصر هى فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات، وهى أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية.. فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى قد أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القناة وسلامتها التامة، يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة

والامبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القناة فى المنطقة المحددة بملاحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القناة^{١٠}..

وبذلك تكون هذه المعاهدة قد أعطت صفة الشرعية للاحتلال البريطانى لمدن القناة.. وبسبب وجودهم فى أرض مصر أثناء الحرب العالمية الثانية تعرضت هذه المدن للهجوم من قبل قوات المحور، وفيما بعد سوف تصير هذه القوات شوكة فى ظهر الجيش المصرى الناتجة للحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨..

وبعد سنوات انسحب الجنود الانجليز من المدن المصرية تجنباً لاستفزاز الأهالى، تمركزوا حول قناة السويس، التى تكون بهذا قد بقيت مستعمرة انجليزية الى جانب ذهاب ايراداتها الى المستغلين الأوروبيين والافرنسيين^{١١}..

◆ الفصل الثالث عشر ◆

فصل من مائة الوجد .. وأكثر من أكتوبر ..

فى أكتوبر ١٩٥١ ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦ - رغم ارادة الملك - وطالب باسحاب الاجليز من القناة، ورفضوا بحجة أن الالغاء نم من طرف واحد، وأيدهم الأمريكان والفرنسيون، وعلى الفور تحركت المظاهرات فى كل مكان نطالب بالسلاح، واستقال العمال العاملون فى ثكنات الاجليز، وامتنع معظم الموردين عن امدادهم بالأغذية، وراحت الصحف تنشر اسماء المتعاونين معهم فى قوائم سوداء.. واستمر الكفاح حتى يناير ١٩٥٢ حيث وقعت مؤامرة حريق القاهرة، التى اشتعلت فى ٢٦ يناير من غير أن تجد الحكومة من يوقف المشعلين، إذ كانت قيادة الجيش والبوليس يومها فى قصر عابدين على مائدة الملك فاروق الأول، والذى ألغى البرلمان وأقال وزارة النحاس بعد أن دفعها الى اعلان الأحكام العرفية.. وظن هو ان الحركة الوطنية قد أخمدت وانه قد صار الحاكم المطلق شأن اجداده، وظن الاجليز انهم باقون.. وأصبح واضحاً أن البلاد فى حاجة الى ثورة جديدة، خصوصاً وأن عنصراً خطيراً بدأ يلعب دوره فى المنطقة له صلة وثيقة بقناة السويس..

ففى أثناء الحرب العالمية الأولى صدر وعد بلفور بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، وفيما بين الحربين الأولى والثانية كانت فرنسا قد انضردت بأرض سوريا ولبنان، وكانت بريطانيا قد انضردت بأرض مصر والعراق وفلسطين، فسمحت بهجرة اليهود الى فلسطين تمهيدا لقيام دولة اسرائيل.. وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت أمريكا قد عرمت على أن تترك الاستعمار القديم، وكانت قد صارت الدولة الأقوى والأغنى فى الغلبة الأرضية، فنقلت الحركة الصهيونية اعتمادها من بريطانيا اليها..

وفى أكتوبر ١٩٤٥ طلب الرئيس الأمريكى ترومان من الإنجليز بأن يفتحوا أبواب فلسطين فورا لدخول مائة ألف مهاجر يهودى.. وبعد أقل من عام صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ أعلنت إنجلترا انسحابها منها وفى اليوم التالى مباشرة أعلن رسميا عن قيام دولة اسرائيل!..

وقد أرادها الغرب ركيزة مستديمة له، أوروبية الطابع بين بحر من البلاد العربية المنهكة، وأرادها أيضا عصا غليظة يضرب بها أية حركة تحرر عربية ضمانا لاستمرار سيطرته على بتروى المنطقة وعلى قناة السويس، ووقت إنشائها لم يكن لدى العرب جيوش ذات قوة تذكر، وكان الجيش المصرى جيش

نشريرات ينقصه السلاح الحديث والتدريب الجاد، وكانت مصر
نفسها ممزقة نتيجة لدكتاتورية الملك ولعدد الحكومات غير
الدستورية، لذلك فقد تردد رئيس الوزراء النقراتشى باشا عام
١٩٤٨ فى الزج بالجيش المصرى الى حرب فلسطين، وحتى لا
تكون القوات الانجليزية بقناة السويس وراء ظهره بمجرد عبوره
الى صحراء سيناء.. لكن الملك امر صديقه حيدر باشا قائد
الجيش باجتياز الحدود — فى نفس يوم اعلان اسرائيل — دون علم
رئيس الوزراء ودون اقرار من البرلمان، قاصدا من وراء ذلك استعادة
بعض هيئته وصرف انظار الناس عن المشاكل الداخلية
بمشكلة خارجية، وامتصاص كرههم له حيث كانت الاغتيالات
السياسية قد استفحلت بسبب عدم ثقة بعض الشباب
الخلص فى القيادات، وبسبب فقدان الأمل فى جدوى الكفاح
السلمى المشروع ضد طغيان السلطة..

كانت الحرب فرصة للملك لفرض الأحكام العرفية ولفتح
أبواب المعتقلات على مصراعيها لاعتقال مئات الشرفاء. لكن
”الجيش العربى“ هزمت وبقيت دولة إسرائيل وتشرد مليون
فلسطينى بينما كان غالبية المصريين فى فقر مفرغ، وقلة
مستغلة تعيش عبثة مترفة وتسمن من مصائب الوطن!..
صار واضحا أن العدو ليست إسرائيل وحدها وإنما الاحتلال

الانجليزى على ضفة القناة والملك والرجعية فى قلب القاهرة.. ولهذا كانت أول قرارات ثورة ١٩٥٢ هو انشاء جيش وطنى قوى واصدار قانون الاصلاح الزراعى وطرد الملك واعلان الجمهورية ومصادرة اطيان أسرة محمد على واعادتها الى أصحابها من ذوى الجاليل الزرق. والبدء فى مشاريع التصنيع الكبرى.. وأخذ أساس الوضع الاجتماعى يستدير لصالح الأغلبية..

وفى أكتوبر عام ١٩٥٤ وقع الرئيس جمال عبدالناصر مع الانجليز معاهدة الجلاء عن مدن قناة السويس.. وخرج الانجليز من القناة تحت ضمانه صنيعتهم إسرائيل، وعلى أمل أن ينجحوا فى ضم مصر الى أحلافهم العسكرية — وهى نوع من الاستعمار المقنع — وهى الأحلاف التى رفضها النحاس باشا من قبل. وعادت أمريكا واجلثرا تعيد عرضها على جمال عبدالناصر الذى رفضها أيضا وتسبب فى فشلها فى كافة أنحاء العالم العربى باستثناء بعض دول البنول..

خرج الجنود الأجانب وظلت الشركة الأجنبية تنهب دخل القناة دون مبرر.. والذى حدث أن مصر كانت فى حاجة الى توفير طاقة كهربية لتشغيل المصانع الضخمة المزمع انشاؤها. وكانت فى حاجة الى مزيد من مياه النيل لرى الأرض المزمع استصلاحها.. ومن أجل هذا كان لابد من بناء السد العالى.

وهنا كان الوقت قد حان لاعادة قناة السويس — أخيرا — الى أصحابها كي تنفق على بناء السد العالي. فأمرها الرئيس جمال عبدالناصر بخطابه الشهير عام ١٩٥٦ وهنا أيضا سوف يتأكد الهدف من انشاء دولة اسرائيل..

فمنذ قيام ثورة ١٩٥٢ وإسرائيل لا تكف عن الاعتداء على حدودنا. ثم راحت تلتهم المناطق المنزوعة السلاح كان آخرها منطقة "العوجة" .. وكان الغرب يغرقها بالسلاح الحديث ويمنعه عن مصر وعن العرب. فلم يجد جمال عبدالناصر من بد سوى شراءه من الاتحاد السوفيتي. إذ كان لابد من وجود جيش قوى يحمى الحدود ويحمى منجزات البناء. وأعلن ذلك فى سبتمبر ١٩٥٥.. وفى الشهر التالى مباشرة أعلنت أمريكا استعدادها لبناء السد العالي. وكانت دراسة مشروعه قد تمت على أيدى أشهر خبراء المانيا الغربية وفرنسا وأمريكا وإنجلترا. ولم تمض سوى شهور قليلة حتى عادت أمريكا تنسحب من المشروع فجأة، بل وراحت تشهر بالاقصاء المصرى على انه عاجز وخرب.. وكانت أمريكا غاضبة من رفض مصر للانصياع تحت راية أحلافها العسكرية.. وكان الرد المصرى بعدها بقليل هو تأميم القناة. إذ كان الوقت قد حان لأن تكون فوائدها لبلدها تنفق منها على بناء السد العالي. الذى حل فيه

المهندسون الروس محل الأمريكان.. ومن أجل هذا كله حدث ماسمى بالعدوان الثلاثي..

فى أكتوبر من نفس عام تأميم القناة يقدم جيش إسرائيل عبر سيناء المصرية بينما أساطيل الجلاء وفرنسا تطبق على القناة المصرية فى غزوة بربرية قصد منها اهدار استقلال مصر والعودة الى استلاب الغرب لدخل الملاحة.. لكن أمام مقاومة المصريين المستبسلة وحت ضغوط الظروف الدولية المعاكسة ومعارضة روسيا وأمريكا، كل دولة لأسبابها الخاصة، فشلت هذه الغزوة الثلاثية واندحرت، وتحولت الى مسمار أخير فى نعش الاستعمار البريطانى.. وبهذا تكون أرض القناة قد قبرت والى الأبد الامبراطوريتين القديمتين، الفرنسية والانجليزية، واللتين حكمتا فى بلاد الأرض لعدة قرون..

عادت الملاحة الى الفناء بعد أن أغلقت لأكثر من العام، لتواصل مصر جنى ثمارها من العملات الأجنبية، ولتؤدى دورها فى خدمة الملاحة الدولية، حيث أثبت المصريون نجاحا مؤكدا فى ادارة القناة وأظهروا المرشدون المصريون مهارة فائقة فى تفسير قوافل السفن على طول مجراها من السويس الى بورسعيد وبالعكس.. ثم راحت الهيئة المصرية تعد المشاريع لتوسيع وتعميق المجرى كى يتلاءم مع متطلبات الملاحة

العصرية ومع اتجاه العالم الى بناء السفن الكبرى ذات الغاطس العميق..

ولم يوقف هذه المشاريع سوى حرب ١٩٦٧ التي سماها العدو غرورا حرب الأيام الستة!!.. وفيها قامت اسرائيل بدورها منفردة .. ولكن بمساعدات مستترة .. لتحتل سيناء.. بعد أن ظلت تعد لهذه الحرب منذ عام ١٩٥٧ أى لمدة عشر سنوات.. رغم هذا فان انتصارها لم يكن بسبب مهارة جنودها وعبقريه مخططيها، وانما بسبب الاهمال والقصور الذى كان متفشيا بين قادة جيشنا، الذين انغمسوا فى الاهتمام بنترأس نواذى كرة القدم وفى القفز الى المناصب المدنية الكبيرة، ضاربين عرض الحائط بالكفاءة، وبقيمة التخصص التى هى سمة عصرنا الشديدي التركيب.. ولم يكن الذنب ذنب جنودنا أو ضباطنا. وقد استشهد منهم ما يقرب من العشرين ألف شهيدا، تحت نار شمس يونيو وفوق رمال سيناء وبرصاص ونابالم طائرات العدو المطمئنة!!..

وبعد ستة أيام كان جيش إسرائيل متمركزا على الضفة القناة الشرقية..

◆ الفصل الرابع عشر ◆

لمحات من الكنوز العسيرة ومن بعض ما فعله أبنا الصمت في ست ساعات

المتأمل في حالة قناة السويس يجد أن ضرورها على مصر كان أضعاف أضعاف فوائدها. فمنذ افتتاحها الأول في عهد الخديوى اسماعيل عام ١٨٦٩ وإيراداتها تذهب الى أصحاب الأسهم الغربيين ولدة ثمانين عاما متتالية. أى حتى عام ١٩٥٦ عندما أمها الرئيس جمال عبدالناصر في ذكرى ثورة يوليو. وما هي إلا شهور قليلة حتى وقع العدوان الثلاثى فتعطلت الملاحة بها لأكثر من العام، الى أن أعيد افتتاحها مرة ثانية بعد انسحاب جيوش المعتدين، وبدأت مصر تأخذ دخلها. ولكن هذا لم يدم سوى عشر سنوات فقط. والى أن وقعت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، ومنذ هزمتنا والقناة مغلقة لسنة أعوام متتالية، والعدو يربط على الضفة الشرقية لها..

سنة أعوام كامله حدثت فيها ملايين الوفيات والولادات والقبلات والاندھاشات والأكاذيب والبسمات، وسمعنا خلالها سمجات لا حصر لها ومنغصات لا آخر لها. وذك العدو فيها مدن القناة الثلاث وأحرق معامل تكرير بترول الزیتة.. وتم فيها العديد من اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن. وصدرت عشرات التصريحات تستنكر الاحتلال الإسرائيلي. وتستنكر اشتراك قواتها البحرية والجوية في مناورات الأسطول السادس الأمريكي بالبحر المتوسط. دون جدوى.. ولهذا كانت القاعدة التي أكدت وجودها هي أن مصائر الأمم لا تتحدد بالخطب النارية أو باللقاءات السياسية وعناق القادة. وإنما تتحدد حسب محصلة القوى الموجودة في واقع الحياة.. فقد صدر أكثر من قرار من مجلس الأمن ومن هيئة الأمم المتحدة يطالب إسرائيل بالانسحاب من الاراضي المحتلة. أى من سيناء وغزة والجولان والضفة الغربية لنهر الأردن. ولكنها لم تبال. ولماذا ترضخ وهي تعرف ان الجيوش العربية أضعف منها. ومقابل أى ثمن تنسحب؟!

كانت هذه القاعدة هي التي جعلتنا ننكمش على جراحنا صامتين، ونعمل وننتج ونعيد بناء جيشنا دون جعجة أو طنطنة. وظل جنودنا وضباطنا (ومعظمهم هذه المرة من

المؤهلين علميا، فالعلم هو لغة العصر والعصور التالية) يعملون في صمت ويستوعبون السلاح الجديد وفنون الحرب الحديثة في صبر.

في بداية الهزيمة كان جنود العدو يسبحون في القناة دون خوف، وكان جنودنا يرونهم يندسون مياهها ولا يملكون سوى كنهان الغيظ، وكانت أوامرهم صارمة تنحصر في كلمتين "ضبط النفس" .. وبعدها جاءت مرحلة الردع وكانت تعنى الرد على العدو إن هو فتح نيرانه بنيران ماثلة، فامتنع جنوده عن السباحة في مياه القناة وعن الظهور خارج ملاجئهم خوفا من رصاص قناصتنا.

وعندما انهمك العدو في بناء مواقعه الحصينة جدا التي سماها خط بارليف، والتي بلغت تحصيناتها حدا فاق جميع تحصينات جيوش النازي، راحت أجهزة اعلامه تجتمع في جميع أنحاء العالم بأنهم قد شيدوا الخط المنيع الذي لا يمكن اقتحامه، لكنهم فوجئوا بهجمات ليلية من صاعقتنا، تعبر وتفتح وتنقض بالسلاح الأبيض، ثم فوجئوا بهذه الهجمات تفتحهم نهارا تحت ضوء الشمس، وبالمدفعية تصب نيرانها عليهم لساعات طويلة فيما سمي بحرب الاستنزاف، ففقدوا أعصابهم، وأخذت طائراتهم القاذوم تغير على المواقع المدنية، على عمال مصانع أبي زعبل، وعلى أطفال مدرسة بحر البقر

الابتدائية.. وعلى الناس فى سوريا ولبنان والأردن..

وفى خلال هذه السنوات الست مصت خمسون عاما على ثورة ١٩١٩، وصعد الانسان الى القمر لأول مرة حيث وصفه رائد الفضاء أنه كشاطئ رملى قذر عليه آثار أقدام وتنتشر فوقه الفوهات البركانية والجبال الوعرة. وفيها واصل عالم المصريات "ايمرى" تنقيبه بما للموسم السادس على النوالى فى محاولة لاكتشاف مقبرة "ايمحوتب" الذى رفعه المصريون القدماء لنبوغه فى العلم والطب الى مرتبة الآلهة مع أنه لم يكن من نسل الملوك الفرعنة..

وخلال هذه الأعوام الستة أيضا زاد الضغط على أعصاب الناس حتى قارب الانسان أن يصاب بضغط الدم أو بنصلب الشرايين. وزاد نفاد الصبر وعلى الأخص عند الشباب والطلبة، كما استفاد بعض الانتهازيين من ظروف الركود وأثروا من وراء ذلك، وانتشرت الأفلام الرديئة والفجة، وحدثت الاشتباكات العنيفة على جبهات القناة والجولان وربما الأردن. وقامت دولة جديدة لم تكن موجودة من قبل سميت بنحالايش. انتشرت موضه الملابس القصيرة جدا ثم موضه الملابس الطويلة جدا، وسمعت آلاف النكت، واكتشف عالم ايطالى أن الحب هو خير عقار ضد نصلب الشرايين..

سته أعوام حدثت فيها ملايين الأحداث الهامة والصغيرة.

والعدو يزداد غرورا ويعلن أنه أقوى قوة عربية في الشرق الأوسط. وأنه لن تقوم قائمة لأي دولة عربية وخاصة مصر أكبرها!..

الى أن جاءت الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ عندما اخترقت أكثر من ٢٢٠ طائرة نفثة مصرية سماء القناة لتدك جميع مراكز قيادة العدو في سيناء المصرية، بما فيها مراكز السيطرة على إدارة الطيران والدفاع الجوي والشوشرة، ولتدك معها غروره وخطريته ووهمه الذي صدقه من كثرة القريد والقائل بأن جيشه لا يقهر.. ولتكسر لدينا حاجز الخوف والهزيمة والمهانة والضباع الذي عانت منه أمتنا العربية ومصرنا الغالبة.. ولتندفع في أعقابها جموع هادرة من جنود مصر الى قناة السويس.. حيث انتعشت المياه وهي تستقبلهم في مئات القوارب. وهم مندفعون بقوة وبأس مقتحمين عابرين الى الضفة الشرقية من قناة السويس العتيدة..

ما أن وطأوها حتى استداروا يقتحمون دشيم العدو المنيع ويحطمون دباباته التي حاولت التدخل.. وما هي إلا ساعات فقط حتى كانوا قد قضوا على اسطورة خط بارليف الذي لا يقتحم بأن اقتحموه..

هكذا كان كلام الأبطال من أبناء الصمت بالفعل وبالعمل..
وهكذا كان الفرد منهم يواجه بصاروخه مدرعة حديدية للعدو
أو دبابة عاتية له ويدمرها في أقل من الثانية لتتحول إلى
مسح من الحديد المنصهر. وهكذا كان رميله بتصدى بصاروخ
من فصيلة "سام" لطائرات العدو ويسقطها حتى ففدت
اسرائيل أمهر طياريهها في الساعات الأولى للتحرير المصري.
هكذا في ست ساعات فقط — وبعد صمت ست سنوات —
تمكن أبناء الصمت من دحر هزيمة الأيام الستة..
وفي الذكرى الثامنة لهزيمة ١٩٦٧ — أي في يونيو ١٩٧٥ —
افتتح الرئيس أنور السادات القناة للملاحة الدولية للمرة
الثالثة في تاريخها الدرامي الأليم. لتستقبل سفن العالم
بمرشدين مصريين وبإدارة مصرية..



18.1

◆ الفصل الخامس عشر ◆

الشراء والأمن في الشرق العربي وملاحظات ختامية..

بذلك تبقى إسرائيل هي أكبر خطر معاصر يواجه قناة السويس.. وقد خسرت مصر منذ ١٩٦٧ ملايين الجنيهات من بترول سيناء ومن دخل القناة.. ثم انضقت الملايين فى تطهيرها وفى إعادة بناء مدنها.. وكادت قوافل النمط العالمية أن تتحول الى المحيط الهندى هاجرة البحر الذى تقع عليه موانينا..

لذلك يصبح واضحا الآن — وبديها — ان حماية القناة تستدعى تعمير سيناء وتسليحها وتقويتها. فحدود مصر تقع عند آخر سيناء وليس عند مدن القناة، ومن العار أننا تركنا شبه جزيرة سيناء التاريخية لآلاف السنين صحراء قاحلة، بينما قدر من مياه النيل يمكن أن يحولها الى مصدر رزق وثروة زراعية لا حد لها!..

والطريق الوحيد لتقوية مصر والعالم العربى هو تحويل الكم العربى الشهير الى كيف فعال، وذلك لا يكون إلا عن طريق العلم والدأب فى سبيله، وعن طريق تسخير المال العربى من أجل التصنيع والتسليح، وإيجاد مناخ ثقافى مستنير، بالحرية وضمان حقوق الانسان..

ولنتذكر دائماً أن ذئاب الغابة الأرضية مازالت موجودة، مخالبتها الآن علمية من أقمار صناعية وهندسة وراثية، وأسلحة فتاكة خارقة للجماد والأحياء والعقول..

القاهرة ١٩٧٦



| 1. 8 |

◆ الفصل السادس عشر ◆

فصل من مائة الوعد .. وأكثر من الكثر ..

ما فعله بعض نوابغ المصريين من رفاة إلى عبده والآخرين.
في حوالي مائة من السنين لتفتيح عقول البنات والبنين

تشغل المنطقة العربية نصف حوض البحر المتوسط. هي دول المغرب العربى ومصر والشام، والشام فى التاريخ تشمل فلسطين ولبنان وسوريا. وكانت مصر فى فترات المجد الفرعونى تهيمن على معظم الشام. فلما فقد الانسان المصرى حريته الشخصية وملكة المبادرة، توقف عن الابتكار والابداع، وانهارت الدولة تدريجيا حتى شاخت!!.. وكان ذلك قبل الميلاد!

ظهرت امبراطوريات أخرى هيمنت على حوض البحر المتوسط، كله أو معظمه، لينتقل مركز الحكم من مصر اليها.. مثل دولة الفرس (إيران) التى دحرها الاسكندر المقدونى، لتسيطر أسرة البطالمة على حكم مصر من مدينة الاسكندرية والحوالى ثلاثة قرون، انتهت بالملكة كليوباترة الذكية الجميلة.. بعد ذلك سادت الامبراطورية الرومانية والعاصمة روما.. فالامبراطورية البيزنطية والعاصمة القسطنطينية (اسطنبول الآن).. ثم العرب والدولة الأموية

والعاصمة دمشق، فالدولة العباسية والعاصمة بغداد وفى
زمنها استقل بحكم مصر أحمد بن طولون وبعض أسرته ثم
الأخشيد وبعض أسرته، حتى نقل الفاطميون عاصمتهم من
المغرب العربى الى القاهرة، وامتد نفوذهم حتى فلسطين..
وفى سنة ١١٧١ أخذ الحكم منهم صلاح الدين الأيوبي
الكردي.. فلما أكثر نجم الدين أيوب من شراء العبيد البيض أو
المماليك وجعلهم قواته العسكرية، استولوا على الحكم منذ
عام ١٢٥٠ - وما زالت العاصمة هى القاهرة - ابتداء من
شجرة الدر الى "الظاهر برقوق" ١٢٨٢. وآخرهم "الغورى" ومعه
"طومان باى" .. وحميعهم من أصول تركية أو شركسية أو
تتارية أو ألمانية أو روسية أو قوقازية!!! أو أى جنسية عدا
المصرية!!!

حتى جاءت جيحافل الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وغزا
زعيمهم سليم الأول المنطقة كلها، وحكم الدولة المصرية
بواسطة بقايا المماليك بعد أن باسوا الأرض تحت قدميه،
وماهى إلا سنوات قليلة واستعادوا نفوذهم بحكم خبراتهم
القديمة، حتى صار الوالى التركى ألغوبة فى أيديهم!!!
طوال الأحقاب الطويلة السابقة التى تزيد على الألفى عام.
أى أكثر من عشرين قرناً. ظل المصريون ممنوعين من حمل

السلاح وطبعا من حكم أنفسهم. فضاعت شخصيتهم القومية أو اهتزت، وتحولت الى تابعة بعد أن كانت قائمة. ومقلدة بعد أن كانت رائدة، وخصوصا بعد أن حكمهم قبصر روما ثم امبراطور بيزنطة باسم الدين المسيحى. وبعد أن حكمهم العرب فالمماليك فالعثمانيون ومن تلاهم باسم الدين الإسلامى!.. وجميعهم تقريبا نهبوا مصر وأذلوا شعبها وأهملوا صيانة النيل ومرافقها العامة!..

وفى فسترنى الحكم المملوكى والحكم المملوكى التركى، ومجموعهما يقرب من ستة قرون، غرق المصريون فى أحوال التخلف والجهل وفقدان الهوية. وانعزلوا تماما عن مجريات الأمور فى العالم!.. بينما كانت أوروبا مندفعة بقوة الى عصر نهضتها العلمية والصناعية، وبالنسبة الى عصر هيمنتها الاستعمارية العسكرية على العالم!..

وبسبب احتكار السلاطين للملكية الأراضى الزراعية وماتبقى من صناعات، أصبح المصريون أجراء أقرب الى العبيد، وذلت الطبقة المتوسطة، وهى الطبقة المبدعة التى نقلت أوروبا من ظلام الاقطاع الى النهضة الصناعية والعلمية التى نعرفها الآن!

ارهاصات أولى:

ثم أخذ شعاع ضوء خافت يظهر فى هذا الليل السيهيم، مع حدوث أول انتفاضة فى جنوب مصر ضد الاستبداد المملوكى التركى، عندما تحالف الفلاحون والبدو بزعامة رجل اسمه همام وأسقلوا بحكم الصعيد عن القاهرة واسطنبول من ١٧٦٥ الى ١٧٦٩.. وقد وصف رفاعة الطهطاوى هذه الحركة الاستقلالية القصيرة بأنها جمهورية!.

بعد ذلك بحوالى ست سنوات، قام أهالى القاهرة عام ١٧٩٥ بقودهم مشايخ الأزهر بثورة شعبية، انتهت بتوقيع الممالك والأتراك على ميثاق تعهدوا فيه بالتزام العدل!.. وهكذا تهيأت أذهان المصريين الى أخذ حقوقهم بأيديهم، والى الاحساس بشخصيتهم الجماعية، وإن كانوا مازالوا مخدرين بالجهل والفقر والمرض، معزولين عن العالم الخارجى!..

بعد ثلاث سنوات جاءهم من هذا العالم الخارجى نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ لاحتلال البلاد، فأحدثت حملته الفرنسية لهم صدمة حضارية، شرخت عزلتهم، وجعلتهم يكتشفون أن العالم الخارجى تطور وقفز الى الأمام، بينما هم بالانحطاط قانعون، على ظن أن هذه الحياة!!
شاهدوا السادة الممالك والأتراك بكل تجبرهم وغطرستهم

وأبتهتهم وحاشيتهم، ينهزمون في ساعات قلائل أمام جيش الفرنسيين ذوى الثياب الخشنه، ويفرون مذعورين، تاركين المصريين (المنوعين من حمل السلاح) وحدهم يهتفون حسب قول مؤرخنا عبدالرحمن الجبرتي "باخفى الألفاف جئنا بما نخاف"!!..

بهذا انمرط العقد المجحف غير المكتوب الذى كان قائما، فالمفروض أن الممالك والأثراك يتمنعون بمعظم خيرات البلاد فى مقابل حمايتها من الغزوات!!..

لكن المصريين رأوا أنظمة وأسلحة لم يكونوا على علم بها، وسمعوا من بونابرت كلاما جديدا عليهم، وهو يخاطبهم قائلا: "إن وطنكم مصر أخصب البلدان، الإقليم الأحسن الذى لا مثيل له فى العالم، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة أخذها العالم كله عن أجدادكم الأوائل" ..

ثم وجدوا أنفسهم لأول مرة منذ عهد "أجدادهم الأوائل" يشاركون فى برلمان استشارى اسمه "الديوان العام" وفى وزارة مصغرة اسمها "ديوان القاهرة" .. وعلى الفور استيفضت هويتهم من غيبوبة الجهل، وأخذت نسترد عافيتها.. ونبهوا إلى وضعهم الشاذ المهين: هم الشعب الطيب الذى يستثرون العبيد الممالك بأمواله ليحكمونه ويذلونه باسم الدين!!

أول الصحوة:

كان زمن الحملة قصير، لكن تأثيرها الحضارى خطير على عقول المصريين. وحين أفل نجم نابليون سنة ١٨١٥ وانتهى الى منفاه بجزيرة سانت هيلانة، كان نجم محمد على (وهو مثله من مواليد عام ١٧٦٩) يسطع فى سماء مصر. بعد أن أباد المماليك، واندفع الى انشاءاته المعمارية والحربية، وأرسل بعثاته التعليمية الى أوروبا، معظمها الى فرنسا. وبنى عشرات المدارس والمعاهد الحديثة، وكل ذلك فى زمن قياسى، وبثروة مصر الذاتية، البشرية والمادية ودون قروض!..

وقام سنة ١٨٢٠ بنكوبن أول جيش مصرى منذ أيام المجد الفرعونى قبل الميلاد.. وقد استعان بالكولونيل الفرنسى "سيف" الذى تمصر وحمل اسم سليمان باشا الفرنساوى، ونزوجت ابنته من محمد شريف باشا الذى سوف يترأس الوزارة عدة مرات، ويقوم بصياغة أول دستور مصرى، ليصبح اسمه "أبو الدستور"..

بهذا الجيش المصرى احتل إبراهيم باشا (وهو ابن زوجة محمد على) الشام كلها، وكاد يحتل تركيا ذاتها، ليعود مركز الحكم الى القاهرة، لولا تدخل بريطانيا التى كانت عظمى وقتها!

أما البعثات التعليمية فقد ضمت الخامسة منها سنة ١٨٤٤ محمد شريف باشا (أبو الدستور) والأمير اسماعيل بن إبراهيم باشا (الخدوي اسماعيل فيما بعد) وعلى مبارك (صاحب الخطط التوفيقية) وغيرهم.

أما البعثة الأولى الى فرنسا ١٨٢٦ فقد شملت أربعين مبعوثا، توزعوا لدراسة علوم الحرب والبحرية والقانون والطب والسياسة والهندسة والتعدين والرى والميكانيكا والطباعة والكيمياء. وقد ضمت هذه البعثة شخصية مصرية فذة من صعيد مصر هو رفاعة رافع الطهطاوى. ذهب ليؤم المبعوثين فى الصلاة، فسبقهم الى تعلم اللغة الفرنسية والى استيعاب التغيرات الاجتماعية والفكرية الهائلة التى عاصرها هناك. فصار رائد نهضة العلوم والآداب فى عصر محمد على. وكان أول من كتب باللغة العربية عن الديمقراطية والدستور ونظم الحكم الحديثة، وعن ضرورة عمل المرأة. كما حاول إيقاف نهب الآثار المصرية.. وأنشأ مدرسة الألسن لتدريس اللغة العربية والفرنسية والفارسية ثم الإيطالية والإنجليزية، وعلوم التاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية.. وعن طريقه وزملائه وتلاميذه، بدأ عصر النهضة المصرية ثقافيا وعلميا، وراح المتعلمون يجاهدون لتقليل الفارق بين

تحلف أهاليهم الفساح والنقدهم الأوروبي الشاطح!.. غير أن المشكله كانت فى انعدام الحرية!.. وعبرة التاريخ تؤكد أن عقل الانسان لا ينطلق ولا يبتكر إلا إذا كان صاحبه حرا. وكان محمد على طاغية. حرم المصريين من ملكية الأراضى الزراعية والمناصب الكبرى المدنية والعسكرية. وأوقفها على الأتراك والشركس!.. وكانت مصانعه قد أنشأها لخدمة فتوحاته الحربية. فانهارت بانتهاء الفتوحات. لأنها لم تكن نتاج التطور الطبيعى للطبقة المتوسطة التجارية مثلما كان الحال فى أوروبا..

وبعد انكسار حلمه التوسعى. فرضت إنجلترا وأوروبا على مصر سياسة الباب المفتوح. أى فتح أسواقها لبضائعهم دون قيد!.. فانهارت تماما الصناعة المصرية. ووقعت التجارة فى قبضة الأجانب! لكن أجنبيا واحدا منهم لم يجرؤ على مخالفة لوائح محمد على.. عكس ذلك كان الحال فى عهد خلفائه. عباس الذى كان جاهلا لوطيا بهوى الغلمان. واغتيل سنة ١٨٥٤ بيد اثنين منهم. بعد أن أغلق معظم مدارس أبيه. وبدأ يمد أول خط سكة حديدية بين الاسكندرية والقاهرة بواسطة مخترع القطارات نفسه.. وكانت بذور التنوير قد نمت واشتد عودها فى عهد أبيه..

بعد عباس جاء سعيد الضعيف أمام الأجانب، فتوافد النصابون والمرابون ينهبون ويبتزون!.. وعندما وافق على مشروع قناة السويس بدأت كارثة ديون مصر!.. لكنه أمر بترقية المصريين فى الجيش الى رتب الضباط لأول مرة، وعندما أمر بترقية أحمد عرابى سنة ١٨٦١ من جندى عادى الى رتبة عقيد فى قفزة واحدة، بدأ العد التنازلى لحكم أسرة محمد على!.. وكانت مصر حتى ذلك الوقت شبه مستقلة، وتدفع الجزية للباب العالي أى للسلطان التركى فى اسطنبول والذى يزعم انه أمير المؤمنين!

الدستور والصحافة:

تفاقت الديون فى عهد الخديوى اسماعيل!.. لكنه أنشأ آلاف المدارس الحديثة والمعاهد المتخصصة، ومدرسة للخرس والعصيان، وأول دار أوبرا فى الشرق (والتي احترقت فى عهد الرئيس أنور السادات)، وكان الحاكم الشرقى الوحيد الذى أنفق على تأليف وتلحين أوبرا عابدة للموسيقى فردى عن حكاية لعالم المصريات هاريت!.. وفى عهده صدر أول طابع بريد سنة ١٨٦٠.. وأنشئت أولى مدارس البنات، مدرسة شيدتها إحدى زوجاته، ومدرستان شيدتهما بطريكية الأقباط.. لكن الخديوى إسماعيل كان ميالاً للضباط من ذوى الأصول

التركية والشركسية، رافضا للمصريين الذين رفاهم سعيد باشا من تحت السلاح. فحاول طرد ٢٥٠٠ ضابطا من بينهم أحمد عرابي. في وقت كانت الحركة الوطنية في ذروتها. فاجتمع بسخط المدنيين مع غضب العسكريين، ضد مزاحمة الأجانب للمصريين في الوظائف والتجارة، وصار شعار المتعلمين لأول مرة منذ انهيار المجد الفرعوني هو: مصر للمصريين. والفائد هو أحمد عرابي الذي كان يجيد القراءة والكتابة والحساب والخطابة الجماهيرية، وتنقصة خبرة السياسة والعلوم العسكرية!!.

وبعد أن كان مجلس الشورى (البرلمان) استشاريا وبالتعيين، صار بالانتخاب والحكومة مسئولة أمامه الى حد معقول. فلم وجود دستور يكون الفاصل بين الحاكم والرعية. وبدأ محمد شريف في صياغة مواءمة لكن إنجلترا كانت تترصد بمصر، ولا تريد أن يحكم الشعب نفسه حتى تظل مصر ضعيفة!.. وكان أحد وزرائها قد قال ليلة إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩: "لقد حان أوان احتلال مصر" وظلت العشر سنوات التالية تجهز لهذا الاحتلال.. فلما وجدت الحكومة الوطنية تخطط لسداد الديون بالموارد الذاتية، ورأت الخديو اسماعيل يؤيد - ولو مرحليا - البرلمان والدستور، ضغطت على السلطان التركي فعزله

سنة ١٨٧٩.. وحل محله ابنه توفيق المطيع!! وسرعان ما نفذت احتلالها عام ١٨٨٢. ولم يكن بإمكانها حكم مصر ذات الحركة الوطنية بشكل مباشر، والننى مازالت خاضعة رسمياً للسلطان التركى رغم ضعفه ووصفه برجل أوروبا المريض، فحكمت من خلال الخديوى توفيق ورجاله وبعض كبار الملاك والمتعلمين!..

فى عهد الخديوى اسماعيل الذى تأمر الانجليز لعزله، انتعش المسرح والصحافة، فظهر "يعقوب صنوع" الممثل الصحفى ورائد المسرح المصرى الحديث، والذى أطلق عليه اسماعيل وصف موليير مصر، فلما انتقد الاوضاع السياسية أغلق مسرحه ونفاه خارج مصر، فذهب الى باريس وواصل اصدار أول جريدة سياسية هزلية هى "أبو نضارة" سنة ١٨٧٧. وكان يتم تهريبها الى مصر فى زمن الثورة العرابية، ويقرأها المتعلمون للأميين!..

ومن ناحية المظهر، هجر الأثرياء ملابسهم الشرقية والعمامة، وارتدوا الزى الافرجى والطربوش التركى، وعند الأكل استعملوا الشوكة والسكين والمائدة بدلاً من الطباية والقعدة الأرضية!..

وحتى بداية حكم اسماعيل كانت الجريدة الوحيدة بمصر هى

الوقائع الرسمية، وسرعان ما صدرت الصحف الأدبية والعلمية، وجريدتان عسكريتان للجيش المصري، وأكثر من عشر جرائد سياسية، منها جريدة الأهرام التي أصدرها الأخوان سليم وبشارة نكلا سنة ١٨٧٥، وهي الآن أقدم وأكبر الجرائد العربية، وبدأت سلسلة مجلات دار الهلال لجرجى زيدان ١٨٩٦ ثم مطبوعات دار المعارف، وبعض الجرائد بلغات أجنبية ما زال يصدر منها جريدة: LA Progres Egyptien

وفى مطبعة بولاق الأميرية العريقة. طبعت لأول مرة أمهات كتب التاريخ والتراث نقلا عن مخطوطاتها الأصلية بعد تحقيقها وتدوين هوامش الشرح، مثل تاريخ ابن خلدون ومقدمته، وقانون ابن سينا فى الطب، وتذكرة داود الانطاكى وهى فى صيدلة الأعشاب..

وانطلق العقل المصرى الى الابداع — من بعد انتعاش حركة الترجمة — فأصدر محمد الميلىحى كتاب "حديث عيسى بن هشام" فيه انتقاد درامى للحياة بعد الاحتلال، ويعتبره بعض النقاد ارهاصة أولى لفن الرواية العربية.

ونبغ فى الفلك والرياضيات محمود باشا الفلكى، وله رسالة عن الغناطيسية الأرضية قدمها سنة ١٨٥٦ الى الجمع العلمى بفرنسا، وقام برسم خريطة الاسكندرية القديمة

معتمدا على حفريات التنقيب التى قام بها..

حكمة التاريخ:

سرعان ماأفاق المصريون من صدمة الاحتلال ليبدأوا فى مقاومته. مع مواصلة زحفهم نحو التنوير. وكانت عجلته قد دارت وانطلق معها العقل المصرى.. ولم تكن عساكر الاحتلال بفادرة على اعادة الحركة الى الوراء. وصار واضحا أنهم راحلون مهما طال الزمن.

فى سنة ١٨٩٩ أصدر قاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨) كتابه "تحرير المرأة" طالب فيه بالنهوض بالمرأة المصرية لتطوير المجتمع كله. ودعا الى سفورها وتعليمها ومشاركتها الرجل فى الحياة العامة. وقد أثار كتابه هذا جدلا عنيفا. فتولى الرد على معارضيه بكتابه الثانى "المرأة الجديدة" ١٩٠٦.

وإذا كان محمود سامى البارودى (١٨٤٠ - ١٩٠٤) هو الذى أعاد للشعر العربى حيويته من بعد طول تدهور. وأضاف اليه بعدا ذاتيا كان جديدا على القصيدة العربية. فإن أحمد شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) أضاف اليه المسرحيات الشعرية.. كما ظهرت حركة الشعر الحر نمردا على النمط القديم البرتيب. واعترزا باكتشاف الفرد لذاته وثقافته الجديدة وبطلعه الى الحرية

والكرامة والعدالة..

على الجانب المضاد عمل المستعمرون الإنجليز على تحويل مصر إلى مزرعة أقطان لمصانعهم. واستفاد من ذلك ملاك الأراضي.. كما افتتحوا بنوكا خاضعة لهم كان منها البنك الأهلي الذي أودعت الحكومة فيه أموالها منذ اليوم الأول. وجاء القرن العشرين ولم يرحلوا. وأسفروا عن خداعهم وأعلنوا أنهم جاءوا ليبقوا. بعد أن كانوا يزعمون أنهم أتوا في مهمة مؤقتة لإعادة النظام والشرعية ضد عصيان عرابي!!

عندئذ أدرك المثقفون أن الاستقلال لن يتم إلا بالعمل الشعبي وتنظيم أنفسهم. فظهرت لأول مرة تجمعات حرسه لمصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد لطفى السيد. ولكل حزب صحافته. وتكونت النقابات لتبدأ الحركة العمالية. وحدث التنبيه إلى أهمية البعد الاقتصادي فعقد المليون المصريون سنة ١٩١١ مؤتمرا اقتصاديا طالبوا فيه بإنشاء بنك مصرية.. وتطور الوعي القومي وصارت الحركة الوطنية ضد الإنجليز وتركيا معا. ثم تدخلت الظروف الدولية مع ظهور بواذر الحرب العالمية الأولى. فأعلن الإنجليز الأحكام العرفية يوم ١٨ أكتوبر ١٩١٤ (في مصر وليس في إنجلترا!!). وفرصوا الرقابة على الصحف. ثم دخلوا الحرب ضد تركيا. وجروا معهم الجنود

المصريين. الى الصحراء الغربية وخلف خطوط القتال فى أوروبا وعلى ضفاف قناة السويس، وسخروا أكثر من مليون شاب فى تعبيد الطرق لهم بصحراء سيناء والشماء!!.. اقترن كل ذلك باعلان الحماية على مصر وانتهاء السيادة التركية نهائيا. فتغير لقب حاكم قصر عابدين من خديوى الى سلطان ثم ملك.. واعتبارا من ١٩١٧ والى يوم وفاته كان الملك هو قواد جل الخديو اسماعيل، وزوجته نازلى هى حفيدة محمد شريف باشا (أبو الدستور) وأم فاروق آخر ملوك مصر!..

النصف الجميل:

بانتهاء الحرب العالمية الأولى. عاد المصريون بطلانيون بالاستقلال التام، وماطل الاجليز، فاشتعلت ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول، وكانت ثورة شعبية رائعة شملت الريف والمدن.. حتى المرأة التى لم تكن تعرف طريقها الى باب الدار، شاركت فى الثورة بزعامة هدى شعراوى وزميلاتها. واستشهدت أول امرأة برصاص الاجليز هى شفيقة محمد.. وصرن عضوات فى لجنة الوفد المركزية، وساهمن بعد ذلك فى جمعية المرأة الجديدة والهلال الأحمر المصرى (تأسس سنة ١٩١١).. وكان نشيد هذه الثورة "بلادى بلادى" من تلحين سيد درويش، وهو نشيد مصر القومى حاليا. ولسيد درويش فضل تطویر

المسرح الغنائى..

وبعد أقل من عام كان طلعت حرب (١٨٦٧ - ١٩٤١) قد أسس بنك مصر ١٩٢٠ برأسمال وطنى وخبرة وطنية خالصة. ثم قام هذا البنك بإنشاء أكثر من عشرين مصنعا وشركة كبرى تسبق أسماءها جميعا كلمة مصر. مثل شركة مصر للغزل والنسيج. شركة مصر للطيران.. لصيد الأسماك.. للأقطان.. للتأمين.. للأدوية.. للسياحة.. وغيرها.. وجميعها يعمل بنجاح حتى الآن..

كما أسس طلعت حرب أول استوديو سينمائى فى إفريقيا والشرق هو استوديو مصر. وأوفد البعثات الى ألمانيا وفرنسا لدراسة أفرع السينما. (وكان المصريون قد عرفوا عروض السينما بعد اختراعها بسنوات قليلة جدا). كما شيد مسرح الأزيكية على الطراز العربى. وكانت مسرحية الافتتاح هى "أهل الكهف" لرائد المسرح المصرى الحديث توفيق الحكيم.. وكانت أول مسرحية وقفت على خشبة المسرح هى منيرة المهدي

انتهت ثورة ١٩١٩ بفوز مصر باستقلال ناقص ودستور ١٩٢٣ الذى حد من سلطة القصر والأجانب بعض الشيء. وترأس سعد زغلول أول وزارة شعبية.. مع بقاء الإنجليز فى بعض المدن

الكبرى وعلى قناة السويس!.. ولم تنوقف حركة التنوير، فقد أمر سعد بإنشاء عشرات المدارس، نافسه في ذلك بعض الأثرياء والجمعيات الأهلية.. وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده، عاصر في صدر شبابه ثورة عرابي وعرف عيوبها، فأمن مثل استناذه بأن استغلال مصر يمر عبر الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، وعبر تخليص الناس من الجهل والفقر والمرض.. وقد جعل لحزب الوفد في جميع مدن وقرى مصر قواعد شعبية راسخة، ساعدته في التصدي لطغيان الملك والمندوب السامي البريطاني..

وقاسم أمين مثل سعد زغلول من تلاميذ محمد عبده، كذلك أحمد لطفي السيد الذي رأس تحرير صحيفة "الجريدة" في بداية القرن العشرين، فجعلها منارة للعلم والثقافة والتقدم، وعلى صفحاتها تعلم السياسة والكتابة معظم مشاهير القرن العشرين، أمثال طه حسين والعقاد والمازني وحسين هبكل وسلامة موسى.. ثم جاء يحيى حقي والحكيم ويوسف جوهر وغيرهم المنان..

وقد أجزت أجيال المثقفين المتعاقبة هذا التقدم الهائل في زمن قياسي، استهله رفاعة الطهطاوي بنشر كتبه الرائدة.. شمل التطور ففزات هائلة في مجالات الطب والهندسة

والفلك والصناعة والزراعة والرى. فنبغ أسناذ النسبية الدكتور مصطفى شرفه، والطبيب البارح نجيب محفوظ، وهذا الطبيب قام بتوليد طفل حمل إسمه نيمنا بعقريته، كبر الطفل وأصبح روائيا عبقريا نال عام ١٩٨٨ جائزة نوبل للأداب..

وأتمنى أن ننالها فى العلوم..



| ١٢٤ |

◆ الفصل السابع عشر ◆

الطريق إلى الشمولية

ومن الحب ما قتل.. فأخذ الجمل
بما حمل فمأذا يكون العمل؟

نعرف جميعا أن البقر وتناوله السلطان تأكل وتشرب وتنام.
وأن الإنسان الطبيعي يحتاج فوق الأكل والشرب والنوم. إلى
ممارسة حريته الشخصية، وحقه فى إبداء الرأى دون خوف،
والمشاركة فى تسيير أمور وطنه. وبدون هذا يخسر أدميته..
وعبدالناصر من فرط حبه للشعب، منحه الشقة والمأكل
والوظيفة. وحاف عليه من سوء استخدام الحرية فأراحه منها!..

أصدر أمرا ثوريا للمواطن المصرى نصه: ارفع رأسك ياأخى فقد
مضى عهد الاستعباد. وأطاع المواطن. والذي اكتفى بالأكل
والإجباب ومنابعة كرة القدم عاش ومات فى سكية. أما الذى
طمع فيما هو أكثر من ذلك فقد رفع رأسه متلفتنا حوله خوفا
من العسس!

وانتشرت نكتة سخيفة: أن مواطنا انفرد بصاحبه، وسأله إن

كان يعمل مخبراً سرياً، فلما أجاب بالنفى قال: إذن لابد أن أكون أنا!..

معنى النكتة السخيفة أن نصف المصريين صاروا يتجسسون على النصف الآخر، بمعدل واحد من كل اثنين!..
وقد أحب جمال عبدالناصر شيخنا توفيق الحكيم بسبب عبارة وردت في رواية عودة الروح، تتحدث عن توحيد الأمة عندما يصبح "الكل في الواحد، والواحد في الكل". فلما امتلك السيطرة تمنى أن يكون هو الواحد المعبر عن الكل!..

فصار الزعيم الأوحـد، وكاتبه محمد حسين هيكل هو الصحفي الأوحـد الذى من حقه البحيحة من حين لآخر فى مقالائه.. واختزل الإعلام كل فن فى شخص واحد مع التعتيم على زملائه. الروائى الأوحـد غيب محفوظ. مطرب الثورة الأوحـد عبدالخليم حافظ. وهكذا.. مع احترامى لنبوغهم جميعاً..

وأفة العالم الثالث استخدام "أفعل التفضيل" فى مجالات الإبداع. والصحيح استخدام عبارة "واحد من أفضل".. توجد أسرع سيارة، أقوى قبلة، أكبر قاذف - أما فى الإبداع فلا تجوز هذه المقابلة، لأنه لا يوجد مبتكر مثل الآخر لأنهم بشر ومبتكرون، وليسوا سيارة أو قاذف!..

والحياة بدون تنوع وتعدد وتنافس تصبح مواتا!..
وإليك التفاصيل كما عايشتها، وفي قولى بعض المظنة..

أولاً: الوثوب:

استولى الجيش على السلطة سنة ١٩٥٢ تحت اسم حركة الضباط الأحرار، ثم تحت اسم الحركة المباركة، بينما ظل راديو لندن الخبيث يقول "انقلاب الصاغات" حيث كان معظم الضباط برتبة صاغ، واستمر لعدة سنوات لا يقول الرئيس جمال عبدالناصر وإنما البكباشى جمال عبدالناصر، ودفعت النفاهة راديو إسرائيل الى اذاعة وترديد أغنية رجاء عبده "اليوسطحية اشنكوا" على أساس أن والد جمال كان يعمل بالبريد، مع أنها مهنة شريفة!..

ثم التف حول الضباط الشبان عدد من أساتذة الجامعات، بعضهم بدافع الحماس الوطنى، وبعضهم من غير الموهوبين علميا بدافع الطمع فى منصب الوزارة، الذى احتكره طويلا الباشوات والبكوات ومن هم أسوأ أو أفضل منهم، تحدثوا وكتبوا وأكدوا ان ماحدث ثورة وليس انقلابا..

وعلى البركة تحول اسم الحركة المباركة الى ثورة يوليو المجيدة!..
ثم راحوا يتباهون على الثورات الأخرى، وقالوا ثورة بيضاء خالية من إراقه الدماء، بينما الثورة الفرنسية قطعت

مقاصلها رقاب الملكيين ثم رقاب الثوريين!
كنت صبيا في الرابعة عشرة، وشاهدت فرحة الغالبية
العظمى بزوال الملك وحاشيته ونظامه، ففرحت مثلهم.
أما لماذا فُحت حركة الضباط الثبان بسهولة، فلأن المناخ
الاجتماعي كان مهيئا للتغيير، وغالبية الشعب كرهت النظام
القديم واحقاقه وفساده، وكانت كارثة ١٩٤٨ وقيام دولة
اسرائيل وهزيمة الجيوش العربية مازالت في الأذهان، وقضية
الأسلحة الفاسدة التي فجرها إحسان عبدالقدوس تثير
السخف العام، الى جانب فصائح القصر، كما كان للسينما
دور كبير، والذي يشاهد أفلام ما قبل ١٩٥٢ يجد عددا منها
يسخر من أبناء الذوات على أنهم عاطلون يسكرون ويرقصون،
ويحتقرون الفلاحين والعمال والفقراء، وهؤلاء شكلوا ٨٠٪ من
الشعب، الى جانب الوعي العمالي والطلابي..

لكني لمست مخاوف الكبار العقلاء.. وكانت بعض البلدان من
حولنا يقع بها انقلاب عسكري كل عدة شهور أو اسابيع، وكان
الصابط الذي يستيقظ مبكرا قبل زملائه، يسارع الى الاداعة
بعدة دبابات ويذيع البيان رقم واحد.. يستثنى من ذلك ثورة
الدكتور مصدق في إيران والتي أجهضتها المخابرات الامريكية..
كانت مخاوف العقلاء هنا مزدوجة، من أن تكون الحركة مجرد

انقلاب عسكري يليه انقلابات. ومن التآمر الخارجى خصوصا ان القوات الانجليزية كانت مازالت متمركزة فى مدن قناة السويس. وللاجليز والأمريكان عملاء فى كل مكان. والعالم كله مستقطب بين الكتلة الشرقية بزعامة روسيا، والكتلة الغربية بزعامة أمريكا التى خرجت من الحرب العالمية الثانية مفتوحة الشهية للهيمنة على العالم كله!..

والمؤلف ان الثورة يقوم بها الشعوب مثل ثورة ١٩١٩. لكن مبادئ حركة ١٩٥٢ العسكرية كانت جميعها أمنيات ومطالب شعبية: القضاء على الفساد، وعلى الاقطاع، إقامة حياة ديمقراطية سليمة.. وكانت فى مجملها مبادئ حزب مصر الفتاة فى شكله الأخير. وكان عبدالناصر يحب فتحى رضوان، والذى صار وزيرا عمل تحت رئاسته يحى حقى رئيسا لمصلحة الفنون، التى كانت الأساس لوزارة الثقافة.. كانت حركة ١٩٥٢ بمبادئها أقرب الى الثورة، أبعد مايكون عن الانقلاب العسكرى. بشرط إقامة حياة ديمقراطية سليمة.. وانتظر الشعب تنفيذ الشعارات الجميلة..

ثانيا: المناورة:

كان عبدالناصر مناورا بارعا، لعب بالجميع من أجل تأمين

حركته. فى البداية تستر ورماه وراء شخصية محبوبة ذات ملامح مصرية طيبة نوحى بالثقة. على عكس ملامح الملك التركية. هو اللواء أركان حرب محمد نجيب. طاف بجميع أنحاء مصر. يدعو الناس الى تأييد الثورة وأنا شخصيا رأيته بالمنيا وأحببته..

وأذكر أن فلاحا عجوزا شاهد حشدا كبيرا من الناس يصفقون لضابط كبير يحيط به ضباط شرطة وجيش. فأخذته الشهامة وصاح هاتفا:

— يعيش جلاله الملك!

فقام المجاورون له بتنبيهه الى أن الملك لم يعد ملكا وغادر البلاد. فبادر الرجل بحركة تصحيح فورية. وهتف بنفس الحماس:

— يسقط جلاله الملك!

وقد استهلوا مطالبهم بضرورة اصلاح الجيش. ثم وجدوا جلاله الملك يرضخ ويعزل رئيس الوزراء نجيب الهلالي. ويعين على ماهر الذى طلبوه. كل ذلك يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان فاروق قد طلب دعم أمريكا لكن السفير "كافرى" خذله. وكانت الاسكندرية مركز الأحداث. فالملك هناك. والحكومة فى مقرها الصيفى بحى "بولكللى". وكان من عادة الملك

والأعيان التصنيف فترة بالاسكندرية ثم فى ربوع أوروبا لأن مصر حراً.

فى التاسعة صباح ٢٦ يوليو ١٩٥٢ تلقى الملك انذاراً بمغادرة مصر قبل السادسة مساءً. وبينما هو يحزم حقائبه مع ناريمان زوجته، كان زعماء الأحزاب يتوافدون على ثكنات مصطفى باشا يعلنون مباركتهم للحركة المباركة، وبلغه الملوك: مبايعتهم لها، وبلغه الحاضر وكرة القدم نضيف كلمتى بالروح والدم!..

كان منهم: أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، الدكتور محمد حسين هيكل صاحب أول رواية عربية "زينب"، ابراهيم دسوقي أباطة، بهى الدين بركات، ابراهيم عبدالهادى رئيس وزراء أكثر من مرة، محمود محمد محمود، مكرم عبيد رئيس حزب الكتلة المشق عن الوفد..

أما مباركة ومبايعة رئيس حزب الوفد ذى الجماهيرية الساحقة فقد تأخرت الى اليوم التالى، لأنه كان مصطفى ربوع أوروبا مع زوجته الشبانة لأن مصر حرة. فعاد على الفور وتوجه مع سكرتير الحزب الشاب فؤاد سراج الدين، وقال لمحمد نجيب: أنه جاء بمجرد عودته ليزور محرر الوطن ومنقذ الشرف الوطنى..

بعد ذلك وصف النحاس الحركة المباركة بأنها مثل "وابور رلط" فالت "يدهس كل من وقف فى طريقه".

وطبعاً اغتر الضباط الشبان بأنفسهم ماداموا محررى الوطن ومنقذى شرقه.. فكان أن تلاعبوا بمنهج التاريخ الذى قرروه على تلاميذ المدارس، واختزلوه الى لحظة عن مصر الفرعونية، قفزا الى الفتح الاسلامى، الى احمد عرابى وهو ضابط من تحت السلاح، رأساً الى ثورة ١٩٥٢..

وحدث التعقيم النام فى أذهان النشء على أطول تاريخ فى الوجود..

وانزوى النحاس بانثى فى داره، يعانى العزلة والشيخوخة. وبعد عدة سنوات، وذات نهار شتوى مشمس، كان جالسا بحديقة منزله، عندما دخلت عليه تلميذة بمعهد الخدمة الاجتماعية، كان استاذها قد كلفها بعمل بحث ميدانى عن كبار السن الذين على المعاش. وطلبت منه بأدب أن يجيبها على سؤالين، فوافق..

كان السؤال الأول عن اسمه. فأجاب:

— مصطفى النحاس

وكان السؤال الثانى:

— قبل المعاش يا جدو، حضرتك كنت بتشتغل إيه؟؟

فأطرق النحاس صامتا، ثم قال بصوت حزين:

— إسألنى أبو كى يابنتى!
وعندما مات اعتقلوا بعض من ساروا فى جنازته لأنهم هتفوا
”لا رعيم غيرك يانحاس!“.

أرادوا محو تاريخ نضاله الطويل بأستيكة. فلما مات ناصر
وتولى السادات واعتقل ”مراكز القوى“ بأسهل الطرق، أخرج
استيكة وسار بها على خط عبدالناصر ليمحوها!

وصدر قانون تحديد الملكية ١٩٥٢ وكان حوالى ٢٥٠٠ شخصا
يملكون وحدهم خمس أطيان مصرًا..

وتقررت تخفيضات لايجار المساكن ثلاثة مرات على فترات.
وهذه هى ببساطة أهم أسباب أزمة المساكن الحالية. فقد
منحت الحكومة بقشيشا للسكان من أموال أصحاب البيوت!..

وأنشأوا محاكم مؤقتة اسمها محكمة الثورة ومحكمة
القدر.. رأسها ضباط ظرفاء من امثال أنور السادات وحسين
النشافعى وجسمال سالم. حاكموا رؤساء وزراء ووزراء وضباط
شرطة وجيش وزينب الوكيل زوجة النحاس، ومدير مستشفى
المواساة، والاتهامات تنحصر فى الاتصال بالأجانب والافساد
السياسى!..

وفى اكتوبر ١٩٥٢ أفرجوا عن الاخوان المسلمين قتلة المستشار
أحمد الخازندار رئيس محكمة جنايات القاهرة، وأفرجوا عن
زملائهم قتلة النقراشى باشا رئيس الوزراء. فكسبوا أو حيدوا

الجماعة، وفى ١٤ يناير ١٩٥٤ حلوها وحاكموا كوادرها.
وهم إذا كانوا لم يسفكوا الدماء، إلا أنهم أصدروا سنة
١٩٥٤ قرارات بالعزل السياسى لأهل الحكم القدماء، وهذا
معناه أن المعزول يأكل ويشرب وينام ولا يرشح نفسه أو ينتخب
أو يبدى رأيه، وهذا اغتيال بطيء لآدميته!..
وسنة من المعزولين كانوا ضمن اللجنة التى صاغت الدستور
المؤقت ١٩٥٣ منهم الفقيه القانونى عبدالرازق السنهورى
ومكرم عبيد الحامى..

وعلى رأس القائمة النحاس باشا. مع أنه لولاه لما دخل جمال
ومعظم رفاقه الكلية الحربية من أساسه. وتفسير ذلك:
أنه بعد انهيار الدولة الفرعونية، ظل المصريون محرومين من
حمل السلاح. وعلى مدى مئات السنين منذ الاحتلال الفارسى
واليونانى والرومانى والعربى والفاطمى والكردى (الأيوبي)
والمملوكى والعثمانى.. الى أن أنشأ محمد على أول جيش
مصرى من الفلاحين سنة ١٨٢٠ وجميع الضباط من الأتراك
والجركس..

هذا الجيش تدخل فى السياسة مرتين:
الأولى: عندما سمح سعيد باشا بن محمد على بترقية أبناء
الفلاحين الى رتب الضباط، فكان منهم عربى ثم ثورته.

الثانية، قبل الحرب العالمية الثانية. عندما أصدرت حكومة النحاس قرارا بقبول أبناء الطبقات الشعبية بالكلية الحربية. كان منهم ناصر ومعظم رفاقه!
الثالثة: نرجو ألا تحدث إطلاقا، وأن يتم التغيير دائما سلميا بالديمقراطية وبالتعدد الحزبي. ونحن لسنا أقل من ايطاليا أو الهند!..

ثالثا: الشمول:

في نفس عام ١٩٥٤ أكلت الثورة أبناءها. عزلوا يوسف صديق الذي كان السبب الأول في نجاح الحركة، ثم ركنوا محمد نجيب وحددوا اقامته في بيته مهانا يعاني نكران الجميل حتى مات. واستبعدوا آخرين بسبب خفة دمهم، إذ طالبوا بالرجوع الى الثكنات وعودة الحياة المدنية. كان منهم خالد محيي الدين الذي رحلوه الى سويسرا!..

انتهى الاندفاع الى الشمولية بالخطوات التالية:

- ١- منع المظاهرات كتعبير ديمقراطي سلمى عن الرأي. وكانت الحركة الطلابية تمارس هذا الحق منذ ثورة ١٩١٩..
- ٢- إصدار قانون سبتمبر ١٩٥٢ يعطى ضباط الحركة حق طرد الموظفين دون محاكمة!..
- ٣- اعتبار جميع فراراتهم سيادية لا تخضع للمساءلة!

٤- حل الأحزاب السياسية!..

٥- حل مجلس نقابة المحامين المنتخب، ومجلس نقابة الصحفيين المنتخب!..

٦- وضعوا فى دستور يناير ١٩٥٦ البند العاشر الذى بنص على أن: يؤلف المواطنون "الاتحاد القومى" الذى يتولى الترشيح لمجلس الأمة (البرلمان) وتعرفون ان هذا الاسم تغير الى: الاتحاد الاشتراكى ثم حزب الوسط ثم حزب مصر، وأخيرا الحزب الوطنى الديمقراطى!..

٧- تأميم الصحف واحتكار الاذاعة ثم التليفزيون!..
وتأميم الإعلام وتأميم العمل السياسى، وقع المصريون فى الأسر، وبدأ النظام الشمولى مثل وأبور ظلط قالت. ودابت شخصية الانسان المصرى، وقامت الدولة بالسفكير له، وعليه أن يكون متنا وسعيذا، فقد مضى عهد الاستقلال والتفكير المستقل!

وفشت ظاهرة كتابة التقارير السرية، والتدخل فى أرائق الخلق.. وعن طريق هذه التقارير الأمنية السرية تبوأ الانتهازيون وماسحو الجوح أهم المناصب. وأصبحت عبارة "شخص له رأى" تعنى أنه ضد الثورة!..

وضعفت المبادرة الفردية، وهى التى حفظ للأمة رقيها. أما

الموهوب الذى لم يستسلم فلم يكن أمامه إلا الانتحار أو
الهدية أو الجنون أو الموت كمدا. وجميعها كما ترون اختيارات
ديمقراطية!..

وكان شخصية فذة:

كان عبدالناصر مؤمنا بكل ما فعله، كان مستبدا لصالح
الأغلبية الكادحة، أحبهم وأحبوه، وأغنى عمره يعمل من
أجلهم. طبقا لمعايير.. وهو ليس هتلر الذى استبد بألمانيا وأخذ
بمذهب الاشتراكية الوطنية كى يغزو العالم على زعم نفوق
جنسه الأرى!..

وهو بالقطع ليس مثل معظم حكام العالم الثالث. عاش
ومات فقيرا. بحثت المخابرات الأمريكية عن حساب له فى بنوك
سويسرا ولم تجد. كانت سعادته العظمى فى ارضاء الغالبية.
ولعله أراد أن يكون الدكتاتور العادل رغم تناقض كلمتى
دكتاتور وعادل!..

إختار نظام "الاشتراكية الوطنية" ومعناها سيطرة الدولة
على جميع وسائل الانتاج، فيصبح المواطنون موظفين بها!..
بنى آلاف المساكن الشعبية، وكفل حق تعيين الخريجين، فزادت
البطالة المقنعة بالنزاييد المستمر لأعداد الموظفين، يتقاضون
مرتباتهم دون مجهود يذكر حتى صاروا عبئا على العمل
وعائقا لحسن الإدارة، وكان الناس من الأصل يشتمون من

البيروقراطية وعبارة "فوت علينا بكرة" .. وأدى الاصرار على
توظيف الجميع الى تعيين معظمهم فى مراكز بعيدة تماما
عن تخصصاتهم. وفى ذلك إضاعة للوقت والمال الذى بذلوه
فى تحصيل هذه التخصصات، وإهانة لهم!..

هؤلاء الموظفون الزائدون جدا عن الحد، وجدوا دون تعب
المسكن الرخيص والطعام المدعوم، فنزجوا وتكاثروا حتى قفز
تعداد مصر من ١٤ مليون سنة ١٩٥١ الى الثلاثة أضعاف وقت
رحيل ناصرا.. وليتهم كانوا منتجين!..

فصار دعم الغذاء والدواء والكساء كارثة على ميزانية الدولة،
يلتهم فائض أى خطة، فعجزت الحكومة عن تطوير البنية
الأساسية من طرق وتليفونات ومجار ومياه وكهرباء ومواصلات
عامه، واكتظت القاهرة بتعداد سكان يعادل عدة دول مجاورة.
وشلت حركة المرور وطفحت المجارى فى معظم الأحياء، وخربت
التليفونات!..

وعجزت الدولة عن تجديد آلات المصانع، فسقطت عزلتنا عن
مبتكرات العصر، وتأخرنا علميا وصناعيا. وأصاب الاحباط
علماءنا الممتازين، خفت قمع رؤسائهم الدخلاء الجهلة الذين
فرضتهم الحكومة عليهم، والذين سماهم محمد حسنين
هيكल أهل الثقة، وكانوا أهل خراب!.. فقد تم استبعادهم عن

الجيش الى هذه المناصب المدنية خشية انقلاب عسكري جديداً..

فإذا أضفنا أعباء الحروب التي دخلناها طوعاً أو فرضت علينا، وصلنا الى فهم سر تزايد الديون الفاحشة، والكارثة الاقتصادية التي تركها لنا ناصر والسادات معاً!!..

مشكلة ناصر هي البناء والهدم، بنى المصانع والعمارات ومصنع الحديد والصلب والسد العالي ومدينة البعوث الإسلامية والجامعات الإقليمية وأكاديمية الفنون، لكنه هدم كيان الإنسان المصري، والدليل على ذلك أنه بمجرد ان مات انهارت إنجازاته وبسرعة وبلا مبالاة ودون مقاومة، وكان أول من بادر الى الهدم رفيق دربه ووريثه أنور السادات (الله يرحمه).. وكان وزير الخزانة د. عبد المنعم القيسوني هو واضع قوانين الاقتصاد الاشتراكي الناصري، وهو نفسه الذي استعان به السادات من أجل تفكيك وحل هذه القوانين!..

والإنسان الذي يرفع رأسه ليتلفت حوله خوفاً، لا يصلح للابداع، ولا لإدارة مصنع أو مدرسة، أو حتى بيته!..

أدى اختفاء الحرية والنقد الى عدم كشف الفساد والاهمال، وعدم كشفهما جعلهما سوسا ينخر في اعمدة المجتمع، فكانت النتيجة التنمية هزيمة ١٩٦٧ الموجعة، كنا نملك أسلحة تدك الشرق الأوسط، وجيشاً كثيفاً، نكبت قواته بقيادات صعد معظمها الى الرتب العالية خفة ظلهم على

قلب المشير عامر رحمه الله، وبدلاً من اللهث وراء كل جديد
فى علوم الحرب وإدارتها، لهنوا وراء إدارة النوادى وكباتى كرة
القدم..

تعيننا نحن تعباً شديداً، ومررض ناصر المرض الذى أدى به الى
الموت، بعد ان أعاد بناء جيش جديد هو جيش الناصر فيما بعد..
بدأ حياته السياسية فى حرب فلسطين، ومات وهو يدافع
عن الفلسطينيين ضد مذابح بدو الملك حسين فيما عرف
بمسبتمبر ايلول الاسود..

والذى لا شك فيه أنه كان محباً وفيماً لشعبه، مخلصاً
لقوميته وعرويته، متعاطفاً مع شعوب العالم الثالث، قطباً
من أقطاب عدم الانحياز، استقطاع فى سنوات فلائل بالدعم
للباشير أو بسطوة شخصيته الفذة، تغيير شكل المنطقة
العربية ومعظم أفريقيا وآسيا، زالت ممالك وقامت جمهوريات،
وجلّت فرنسا عن الجزائر، وصعد شعب اليمن الى سطح الحياة
بعد أن ظل دهوراً تحت حقد التحالف، وعرفت دول افريقية مذاق
الحرية للمرة الأولى، وفى مؤتمر القمة الافريقية بالقاهرة، وبعد
رحيل عبدالناصر بربع قرن، أفاض الزعماء الأفارقة بشكر مصر
وذكرى ناصر..

كان وطنياً مصرياً.. منا ولنا.. وأبصاً علينا..



| ١٤٢ |

◆ الفصل الثامن عشر ◆

وانخناص سلام .. حديث عن الأمل

من الفخر بالأقدميين.. إلى التباهي بالفاديين

مثل محمد على أقام جمال عبدالناصر انشاءات ضخمة. وجعل الدولة تسيطر تماما على جميع أوجه النشاط السياسى والاقتصادى والاعلام. فتحول المثقفون والمتعلمون الى موظفين. وتساوى الكسول مع النشيط. والغنى مع العبقري!.. وتزايدت أعداد المنافسين والمنسلفين. حتى نخرت السلبيات فى كيان المجتمع. من غير أنوار كاشفة أو محذرة لغياب حرية النقد.. فكانت النتيجة كارثة الهزيمة العسكرية المهينة أمام إسرائيل فى يونيو ١٩٦٧!!..

رجل ناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وكان منحازا بقوة الدولة الى الضعفاء. على عكس خليفته أنور السادات الذى انحاز للأغنياء!.. وكان من رأيه ان مفتاح الشعب المصرى هو الدين. فأطلق على نفسه لقب الرئيس المؤمن!.. ولأن اللاعب بالدين فى السياسة مثل اللاعب بالنار لابد أن تحرقه. فقد اغتيل فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ وهو بين جيشه وهيلمانه برصاص جماعات التطرف!.. وكان هو الذى أطلق لهم العنان من قبل ليتصدوا

لليساريين حسب ظنه!!..

وقد قامت طيور الظلام من أعضاء الجماعات الإرهابية بترويع المثقفين وتهديد أوراخهم، وهدفهم نسف حركة التنوير التى أجزها الشعب فى زمن قىاسى، والنكوص بمصر الى عصور الظلام المملوكى العثمانى، وذلك فى عصر القوة فيه للعلم وليس للعضلات أو الطقوس الخوفاء!..

بعد السادات جاء حسنى مبارك، فاستهل رئاسته بتهدئة الأوضاع محليا وعربيا، وبالتصالح مع المثقفين، وعلاج الاقتصاد، وتشجيع القطاع الخاص، وإقامة المدن الصناعية، وتطوير وسائل الاتصال بأنواعها المختلفة، وزيادة الطاقة الكهربائية عشرات المرات، وتعمير سيناء التى كانت مهملة، ثم الاهتمام بالصعيد الذى كان نسيا منسيا، ورعاية الطفل والمرأة، وتطوير التعليم، وإقامة المكتبات، ونشر الكتب المفيدة بأرخص الأسعار..

وكل ذلك بابداعات المصريين..

وجميع هذه الاجازات سوف تقوى وتتطور وتزدهر مع تعاظم ترسيخ الديمقراطية والحرية والعلم، بحيث تصبح مثل الغذاء والماء والهواء يستحيل العيش بدونها.

مصر الجديدة ديسمبر ١٩٩٨

رقم الإيداع: ٣٣٤٢ / ٩٩

هذا الكتاب

حكايات سياسية حول تاريخ مصر
منذ افتتاح قناة السويس وحتى اليوم
تدور عن السلاطين المساطيل، وهجوم
الأساطيل، وبعض الأعاجيب لأصحاب
الجلابيب.

وتشمل حكايات عن بعض ذئاب
الماضي وبدايات القروض.. والرشاوى..
ولمحات من خيانات الأعيان..
إلى أكتوير العبور وبعض ما فعله
أبناء الصمت في ست ساعات..
والطريق إلى التنوير والشمولية..
وأخيراً حديث عن الأمل من الفخر
بالأقدمين. إلى النباهى بالقادمين.

To: www.al-mostafa.com